

الطبعة الثانية

مدير المدرسة

تأليف: جلال آل أحمد

ترجمة: عادل عبد المنعم على

مدير المدرسة

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

– العدد: ٢٦٦ / ٢

– مدير المدرسة

– جلال آل أحمد

– عادل عبد المنعم على

– الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة

مدير مدرسه

نويسنده: جلال آل أحمد

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

مدير المدرسة

تأليف: جلال آل أحمد
ترجمة: عادل عبد المنعم على



رقم الإيداع: ١٠٦٣٢ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولي: 9 - 290 - 479 - 977 - 978
طبع بمطابع مصر للطيران

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

مقدمة المترجم

إن كل كلمات الدنيا ، وما يجرى فيها من أحاديث قد صيغت حتماً من تلك الحروف التى تتشكل منها كل لغات العالم سواء زاد عدد تلك الحروف أو قل ، وأى لغة يكتب بها ... لا تفترق عن هذه القضية البديهية ؛ فكل مانعوفه من سباب أو شتائم ، أو أحاديث منمقة ، وكل النصوص المقدسة - سماوية كانت أو وضعية - بل وحتى اسم الله الأعظم ، ... كلها تكتب بنفس هذه الحروف فى أى لغة كانت ...

أود أن أقول إنه إذا حدث - لأقتر الله - ووضعت أمامك ورقة بيضاء تريد أن تسودها لتطمس بتسويدها الحق وتطأه تحت أقدامك ، عليك أن تتذكر أن عدة الشيطان ومعتاده هى نفس هذه الحروف ، فالأحكام التى تصدر بإعدام جميع الأبرياء ، وأيضاً المجرمين والمذنبين والعصاة تكتب كلها بنفس هذه الحروف فاحرص كل الحرص على ألا يخط قلمك باطلاً ، واحرص كل الحرص على ألا تصبح هذه الحروف بين يديك أو فوق ورقتك أداة من أدوات الشيطان أو عدة من عتاده .

جلال آل أحمد

نون والقلم

« رواية صودرت فور صودرها »

بهذه الكلمات التى صاغها جلال آل أحمد على لسان أحد الممتهنيين بمهنة الكتابة فى روايته الشهيرة « نون والقلم » أراد أن يوجّه أنظارنا إلى أن حروف الكتابة هى عدة كل كاتب ، وهى أيضاً عدة كل شيطان وأنواته فيما يقوم به من أعمال شيطانية ، فيجب ألا تستخدم هذه الحروف إلا فى إظهار الحق وإحقاقه والدفاع عنه ، ويجب على كل كاتب ألا يجعل من نفسه وسيلة من وسائل الشيطان فى طمس الحق ، وتضييعه على أهله . هكذا كان جلال آل أحمد فى كل قصة ، مظهراً للحق ، مؤيداً له ، مدافعاً عنه .

ولد جلال آل أحمد في طهران سنة ١٩٢٣ م ، في أسرة متديّنة وتلقى تعليمه بها إلى أن رحل وهو في سن العشرين إلى النجف لتلقى العلوم الدينية ، لكنه مالبت أن عاد إلى طهران بعد بضعة أشهر ، حيث انضم إلى أحزاب سياسية مختلفة ، منها حزب توده الشيوعي ، وكان ذلك منذ سنة ١٩٤٤ م . إلا أنه لم يجد ضالته المنشودة في أي من هذه الأحزاب ، وأخذ يعمل بالتدريس منذ سنة ١٩٤٧ م (١) ، حتى توفي سنة ١٩٦٩ م وفاة مشكوكاً في أمرها (٢) وربما كان السبب في ذلك وقوفه الدائم إلى جانب الحق في كتاباته ، والدفاع عن هذا الحق مهما كانت العواقب .

وقد واصل جلال آل أحمد بعد عودته إلى طهران دراساته العليا ، وأوشك أن يحصل على الدكتوراه في الآداب ، إلا أن المجتمع وحياة الإيرانيين وخاصة البسطاء منهم ، كانت أكثر جاذبية بالنسبة له (٣) ، فقد اكتشف آل أحمد خلال هذه الفترة أن الإسلام هو البنية التحتية الحقيقية في الشعب الإيراني فانصرف إلى دراسته من جديد ، وانفصل نهائياً انفصلاً فكرياً عن حزب توده ، بعد انفصاله التنظيمي ، وتمثل الإسلام في كل أعماله ، وحج إلى بيت الله الحرام ، ووصف رحلة حجه في كتابه « خسي درميقات : قشه في الميقات » وكان من أهم من وضعوا أساس الفكر الإسلامي الجديد في إيران (٤) لقد أدى اهتمام جلال آل أحمد الخاص بالطبقات الشعبية ، وأهالي السوق والحارة إلى أن اعتبره النقاد كاتباً ومفكراً اجتماعياً ، إلا أنه يجب الاعتراف بأن الشاعر والأحاديث كانت هي المحرك الأول في أعماله الأدبية أكثر من المعلومة المعرفية ، ويدل هروبه وجنوحه إلى السياسة والدين ، وتردده بينهما على أفكاره المتصارعة يوماً ، إلا أنه يمكن القول بحسم إن

معتقدات آل أحمد وأفكاره لم تكن مطلقاً تحت نفوذ المادية ، بينما تنفذ العقيدة الدينية بعمق ووضوح في كتاباته (ه) .

لقد كان اهتمام جلال آل أحمد في السنوات الأولى من حياته الفكرية موجهاً إلى القصة القصيرة ، إلى جانب بعض المقالات التي نشرها في الكتب ، فقد ظهرت له تباعاً مجموعات من القصص القصيرة : - ديد ويازيد ، « تبادل الزيارات » ١٩٤٥ م .

- ازرنجى كه مى برىم ، « من الألم الذى يعانى به » ١٩٤٧ م .
- سنتور ، « السنتور - آلة موسيقية ذات ثلاثة أوتار -
١٩٤٨ م .

- زن زيادى ، « امرأة فوق العدد » ١٩٥٢ م .
- سرگذشت كندوها ، « سيرة خلايا النحل » ١٩٥٤ م . (٦) .
ثم أتبع ذلك بفترة من الصمت لازمته بعد سقوط مصدق ومبادئه السياسية ، وخلال هذه الفترة - وكأنه كان يريد أن يوقظ عبقرية النائمة - تحول آل أحمد إلى البحث في عادات شعبه وفنونه ولهجاته ، وما إلى ذلك من ماثورات شعبية ، ومعلومات حول الحياة الريفية في مختلف أنحاء إيران .

وفي هذا الميدان ظهرت له دراسات ثلاث :

- أوراوان - وهو اسم منطقة في الطالقان الأعلى - ١٩٥٣ م .
- دره یتیمهء خلیج ، جزيرة خارك ، « جزيرة خارك دره الخلیج الیتیمهء - ١٩٦٠ م . (٧)

وفي هذا المؤلف نلمس مثلاً لغضبة جلال آل أحمد من الاندفاع في العصرية ، واعتناق طرق الحياة الأوربية ، وحقيقة أن انتشار فساد

الأخلاق بين مواطنيه كان يدفعه إلى إدانة هذا الفساد ومحاكمته بشكل جاد ومتعصب ، ولس ذلك أيضاً بجلاء ووضوح فى الكتاب الذى أصدره بعد ذلك .

– غرب زدكى ، « معاناة التقرب »

وهو كتاب شديد الخطورة فى تكوين الفكر الإيرانى الذى وقف وراء الثورة الإسلامية فى إيران ، تأثر به فيلسوف الثورة الأول الدكتور على شريعتى تأثراً شديداً (٨) .

وأخر أعمال جلال آل أحمد فى ميدان الأعمال الروائية الرواية القصيرة التى بين أيدينا ترجمتها مدير مدرسه ، « مدير المدرسة – ١٩٥٨ م . ورواية أخرى طويلة تسمى « نون والقلم » ١٩٦١ م . (٩)

ولجلال آل أحمد مجموعة قصصية سادسة تسمى « پنج داستان ، خمس قصص » قامت بإصدارها زوجته « سيمين دانشور » وأخوه « شمس آل أحمد » سنة ١٩٧١ م . بناء على وصيته قبل وفاته . (١٠) .

وبالإضافة إلى الدراسات التى أصدرها جلال آل أحمد وأعماله الأدبية الإبداعية قام بترجمة عدد من الروايات والكتب والمؤلفات من الفرنسية إلى الفارسية من أشهرها : المقامر لديستوفسكى ، والغريب وسوء تفاهم لألبير كامى ، والأيدى القذرة لجان بول سارتر ، ورحلة الاتحاد السوفيتى ، والأغنية الأرضية لأندريه جيد . (١١)

ويتميز أسلوب جلال آل أحمد فى كل أعماله القصصية باستخدامه المفرط لصيغ الكلام ، ويمتد ذلك حتى إلى العبارات الوصفية ، كما أننا لا نستطيع أن نميز بين الحوار المباشر وغير المباشر فى قصصه ، وفوق ذلك فهو سيد الاختصار والاقتصار فى التعبير ، وهو يصور شخصياته عند ظهورها باختصار ، ويتركها تنأى إلى الحياة من خلال حديثها .

ويلعب الاستهزاء والسخرية والمكاشفة الممتزجة بالفكاهة - وهي إحدى مميزات الشعب الإيراني - دوراً كبيراً في أعماله . وبالرغم من ميوله النقدية وأحياناً الثورية ، بقي جلال آل أحمد رجلاً من الطراز القديم من صميم قلبه ، معجباً بكل كيانه بالتراث القومي وخاصة بالقوانين الأخلاقية في إيران . (١٢)

المترجم

الهوامش

- (١) حسن عابدين ، فرضك داستان نويسان إيران ، ص ٢٦ .
- (٢) حسن كمشاد ، النثر الفنى فى الأدب الفارسى المعاصر ، ترجمة وتعليق د . إبراهيم الدسوقي شتا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ ، هامش ص ١٩٤
- (٣) محمد استعلامى ، ادبيات نوره بيدارى ومعاصر - ص ٢٠٦ .
- (٤) حسن كمشاد ، ترجمة الدسوقي شتا (المرجع السابق) هامش ص ١٩٣ .
- (٥) مريم مير أحمدى ، تأثير ونفوذ مذهب نر آثار جلال آل أحمد - مقاله بمجلة سخن « نور بيست وششم ، شماره ١٠ ، آنرودى ماه ١٣٥٧ هـ . ش . ص ١٠٨١ .
- (٦) قامت بترجمة هذه المجموعة إلى العربية د . رملة غانم .
- (٧) حسن كمشاد ، ترجمة وتعليق د . الدسوقي شتا ، مرجع سابق ، ص ١٩٣ .
- (٨) المرجع السابق ، ترجمة وتعليق د . إبراهيم الدسوقي شتا ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية حامد الجر ، وله ترجمة عربية للدكتور إبراهيم الدسوقي شتا لم تنشر بعد ، وقد صودر هذا الكتاب فى إيران فور صدوره .
- (٩) صودرت هذه الرواية فور صدورها أيضاً ، وتقوم بترجمتها إلى العربية الآن د . ماجدة العنانى .
- (١٠) محمد محمود عبد المحسن ، الواقعية الجديدة فى القصة الإيرانية المعاصرة ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، جامعة عين شمس ، ١٩٩٦ م ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .
- (١١) حسن كمشاد ، المرجع السابق ، ترجمة وتعليق د . إبراهيم الدسوقي شتا هامش ص ١٩٣
- (١٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

كانت السيجارة مشتعلة فى يدى ، عندما دلفت من الباب واضطرت لأن ألقى بالتحية ، ورغم حالة الارتباك والحيرة التى انتابتنى إلا أننى تمألكت نفسى . استقرت عينا مدير المنطقة التعليمية - الذى سمح لى بالجلوس - على يدى للحظة ، ثم انتهى من شىء كان يكتبه . وعندما هم بالانتباه إلى وضعت فوق مكتبه صورة من قرار التعيين ، ولم أنطق بكلمة . أخذ يقلب صورة القرار والأوراق المرفقة ، ثم حرك فكه وقال فى هدوء لا يخلو من عصبية :

- ما عندناش مكان ياسيدى ... ماينفعش كده .. همه كل يوم يحطوا قرار تعيين لواحد فى ايده ، وييعتوهولى .. امبارح .. السيد المدير العام

لم تكن لدى القدرة على تحمل مثل هذه المهاترات فقطعت حديثه قائلاً :

- ممكن أطلب من سعادتك تأشر لى على نفس الورقة ؟

ونفضت سيجارتى فى منفضة السجائر الالامعة الموجودة فوق مكتبه . كان سطح المكتب نظيفاً ومرتباً .. تماماً مثل حجرة استقبال فى شقة عروس حديثة الزواج .. كل شىء فى مكانه ، لا توجد ذرة من تراب ، فقط كان رماد سيجارتى هو الكثير ، مثل بصقة على وجه

خُلِقَ لتوه . . أمسك القلم وكتب شيئاً أسفل قرار التعيين ، ووقع عليه ، وخرجت أنا من الباب الذى دخلت منه . . وانتهى الموضوع وقضى الأمر .

لم يكن فى استطاعتى تحمل مثل هذه الشخصية ؛ فقد كان واضحاً من تصرفاته أنه حديث عهد فى وظيفته كمدير للمنطقة التعليمية . . كان يحرك فكه بصعوبة ويضرب بكلماته بطيئة فى وجه من يحادثه ، وكأنه ليس من الضرورى أن تكون هناك أذن للاستماع إليه .

كنت قد أنفقت مائة وخمسين تومانياً فى الإدارة العامة لشئون الموظفين حتى تمكنت من الحصول على قرار التعيين ، وأخذت معى التوصيات اللازمة ، وداومت سعى طوال شهرين ولم أترك شيئاً إلا فعلته ، وكنت على يقين من أن التعيين قد تم بالفعل سواء قبل هو أم لم يقبل . هو نفسه كان يعلم ذلك . . . ومن المحتمل أنه قد أسقط فى يده حتى أنه ربما احتقر نفسه على هذا العويل والصراخ الذى صدر منه . ولكن قُضى الأمر وما حدث قد حدث .

كانوا قد نصحونى فى الإدارة العامة لشئون الموظفين بأنه على لى اعتمد المذكرة أن أقوم بعرض صورة من قرار التعيين على مدير المنطقة التعليمية .

وقد حدث هذا بالفعل منذ قليل . فمن ذا الذى يستطيع أن يصدر كلمة فوق قرار الإدارة العامة لشئون الموظفين ؟ إنها وزارة بالفعل ، وإدارة حقيقية لشئون الموظفين . . . لم يكن هذا مزاحاً .

كانت أعطاف قلبي أوسع من أن أكون محتاجاً لمثل هذه الأدلة والبراهين ، ولكن فى رأى كان الخطأ كله بسبب هذه السيجارة اللعينة التى تخيلت أننى سوف أدبر مصاريقها من الزيادة فى مرتب الوظيفة الجديدة .

من المؤكد أننى قد ضقت ذرعاً بوظيفتى كمدرس . عشر سنوات فى تدريس أ . ب أمام وجوه أطفال مندهشة ، مبهوتة لما تقوله من أحاديث وأقاويل منمقة وكتابة - الاستغناء - بالغين - والاستقراء - بالقاف ، والأسلوب الخرسانى ، والهندي ، وأقدم ما فى الفارسية من أشعار ، وصناعة إرسال المثل ، ورد العجز على . . . بسبب كل هذه التفاهات والمهاترات رأيت فى نفسى أننى أوشكت أن أتحوّل إلى حمار . قلت لأصبح مديراً لمدرسة ، مديراً لمدرسة ابتدائية لن أعود للتدريس مرة أخرى ولن أفقد أعصابى كل لحظة أمام صبية تتراوح أعمارهم بين اثنتى عشرة وأربع عشرة سنة ، ولن أكون مضطراً لأن أمنع كل غيبى لاشعور له درجة النجاح كى أفلت من تضييع وقتى فى وضع وتصحيح امتحانات الدور الثانى والملاحق وأنقذ الأيام الأخيرة من عطلتى الصيفية التى تعتبر ألد فترة فى العطلة . راودتنى كل هذه الأفكار وأنا فى طريقى . ذهبت وسألت عمن يتدخل فى هذا الموضوع ، وانتهى الأمر بأن أعطتنى إدارة مشون الموظفين يوماً عنوان إحدى المدارس ، كى أذهب إليها وأعابنها ، وأقرر إن كنت أرغب فى إدارتها من عدمه وذهبت .

كانت المدرسة بناية حديثة البناء تتكون من طابقين ، تقف وحيدة في حوض جبل ، تشرق عليها الشمس من كل جانب ، بناها أحد الأغنياء من محبي العلم ومشجعيه وسط أراضي الشاسعة ، وقام بتسليمها إلى المنطقة التعليمية منذ خمسة وعشرين عاماً لكي يديرها كمدرسة ابتدائية ، وتدب الحياة في المنطقة ، وتعبّد طرقها ، ويبعد الطريق على الأطفال فترثى قلوب ذويهم لحالهم وترق ، ولكي تقصّر الطريق على فلذات أكبادهم يأتون ليشتروا الأراضي حول المدرسة ليقيموا فيها منازل لهم ويوتاً ، ويرتفع بذلك ثمن أرض أخينا هذا الذي قام ببناء المدرسة ، من ريال للمتر الواحد إلى مائة تومان .

كان « أخينا » هذا قد كتب اسمه فوق المدرسة على لوحة من بلاطات الكاشاني بخط جميل على أرضية زرقاء ، وزينه بالزخارف النباتية . - من الطبيعي أن تكون المدرسة على اسمه - ولم يكن قد ظهر للمدرسة جيران بعد ، ليخرجروا أقدام سعدى وبابا طاهر ، وينقشوا ورقة أخرى من تاريخ الشعراء على حوائط حاراتهم وأسوارها ، كانت اللافتة تقبع فوق المدرسة كبيرة ضخمة ومقروءة تصرخ بالوضوح من مسافة مائة متر . . كتب عليها

توانا بود هر كه كل ما يتمناه قلبك

وعليها شعار الشمس والأسد الذي وقف على ثلاثة أقدام يحاول بصعوبة أن يحفظ توازنه ، وشمس هانم تركب فوق أكتافه بحواجبها المتصلة وتمسك بسيف في يدها .

على مرمى ثلاثة سهام كانت الصحراء تحيط بأعطاف المدرسة ،
صحراء موحشة لاماء فيها ولا عمران ، وتلك الناحية المتجهة للشمال
كان بها صف من أشجار الصنوبر المتشابكة تطل من فوق سور من
اللبن لحديقة ، لتضرب السماء ببقعة قمیئة اللون على ارتفاع عالٍ .

من المتوقع بعد مضي خمسة وعشرين عاماً أخرى أن تمتلأ هذه
المنطقة كلها بنفیر السيارات وصياح الأطفال ، الباعة الجائلین ، وباعة
الصحف . لقد أصبحت هذه المدرسة بمثابة الدجاجة التي سوف تبيض
ذهباً لأخينا هذا الذي أنشأها ، إذ ربما لم يشتر المتر في هذه الأراضي
بأكثر من عشرة أو اثني عشر ريالاً ! وربما سجّل هذه الأراضي أيضاً
بنفس الأسلوب . . . « اصحى . . فوق ، وأنت مالك يا غبي ! » .

نعم كانت كل هذه الأفكار تراودني في نفس اليوم الذي وصلت
فيه إلى هذه المدرسة لا يعرفني أحد ، وانتهت بي كل هذه الأفكار إلى
أن الناس لهم الحق كل الحق في أن يناموا على الجانب الذي يريحهم ،
وحادثت نفسي « إن كنت رجلاً تجراً وكن مديراً لهذه المدرسة » .

ذهبتُ وتابعتُ موضوع التعيين ووصل الأمر في النهاية إلى أن
أصبحتُ بالفعل مديراً لهذه المدرسة .

علمتُ في نفس يوم وصولي أن المدير السابق للمدرسة يمضي
عقوبة في السجن ، ومن الطبيعي أن تفوح من ملابسه الآن رائحة
العدس ولا بد أنه يقضي الآن عقوبةً لجرمة لم يرتكبها ، أو ارتكبها

شخص ما فى مدينة أخرى ، لم يكن لدى مدير المنطقة التعليمية شخصٌ من معارفه سوف يزداد راتبه إذا أصبح مديراً للمدرسة ، واضطر فى النهاية لأن ينسى هذا الأمر ويكف عن مآطلته لى ، فلم يكن هو نفسه على استعداد لأن يتخلى عن مركزه أيضاً ، كنت قد توصلت إلى هذه المعلومات فى شئون الموظفين ، وأخذت أفكر فيها ولم تكن أمامى فرصة لأن أحدث نفسى بأن أحيى السجين سيخرج من سجنه بهذه السرعة ، كما لم أكن أعتقد أن شخصاً مثله يشاق للعودة للإقامة فى مثل هذه الصحراء بشتائها القاسى ، وصعوبة التنقل فيها ، وبهذا ارتاح ضميرى وهذا تفكيرى .

فضلاً عن كل هذا فإن الإدارة العامة لشئون الموظفين كانت قد أصدرت موافقتها النهائية بالفعل ! صحيح أنهم قبل أن يسموا رائحة نقودى كانوا يتحدثون عن بعض الصعوبات التى تمنعنى من الوصول إلى مثل هذه الوظيفة ؛ على سبيل المثال قالوا : - إن الموضوع يحتاج إلى إعادة نظر فلا يمكن لموظف مثلى أن يصبح مديراً لمدرسة ابتدائية وليس له خبرة فى التدريس أكثر من عشر سنوات ، كانوا يقصدون بذلك أننى لابد أن أكون مختلاً فى قواى العقلية حتى أنقض يدى من وظيفة التدريس المهمة المحترمة ، أو أننى ربما كنت عنيماً أو من المصايين بالشذوذ مع الأطفال والغلمان ، أو أى شىء من هذا القبيل .

وصل الأمر إلى الحديث بمثل هذه التلميحات ، حتى فهمت أننى يجب أن أفتح حافظة نقودى ، وقد فعلتها ، فمائة وخمسون توماناً

بدل إقامة لم تكن فى تلك الأيام بالنقود القليلة التى يمكن إغفال أمرها ، وحتى لو تغاضيت عنها ، فماذا سيكون ؟ سوف أضطر للعودة إلى نفس الفصول وخصص القراءة والإنشاء ، وكتب التراث وكتب الثقافة ، وما إلى ذلك من حماقات .

فكرت فى كل هذا أثناء رجوعى من مكتب مدير المنطقة التعليمية إلى الإدارة العامة لشئون الموظفين ، وأخذت أبحث عنم يتفهم مشكلتى ، وتركت أمامه صورة قرار التعيين ، ورويت ما حدث مع مدير المنطقة . وبعد يومين ذهبت أسأل عن الطلب ، واتضح أن ظنى كان فى محله ، وأن مدير المنطقة قال فى معرض حديثه عنى : « أنا لا أرى فائدة تذكر فى هؤلاء الحاصلين على الليسانس الذين يدخلون أى مكتب والسيجارة فى أيديهم » .

وأن أحدهم رد عليه : « أبداً مطلقاً ، ففلان هذا كذا وكيت ويختلف عن الآخرين بفرق ما بين السماء والأرض » ارتاح خاطرى مما عرفته هذا ، وقلت لأذهب إليه يوم الخميس من الأسبوع التالى ، وهذا ما فعلته .

فى هذه المرة وجدت مدير المنطقة بمجرد أن رأتى يقف متصباً ويقول : « يا سيدى ليه ماقلتش من الأول ؟ . . . » وتبادل معى الحديث والضحكات على هذا النحو ، وقدم لى كوباً من الشاي وأخذ يشكو من رؤسائه ومرؤوسيه ، وعلى حد تعبيره فقد وضعنى فى

مجريات الأمور التي تحدث في موقع العمل ، ثم قام بتوصيلي بسيارته إلى المدرسة ، وعندما وصلنا قال : « لقد ضربوا الجرس مبكراً عن مواعده » وقام في حضور المدرسين وسكرتير المدرسة بإلقاء خطبة عصماء في صفات وفضائل المدير الجديد - الذي هو أنا - وبعدها ذهب وتركني مع مدرسة حديثة التأسيس ، ذات ستة فصول ، وسكرتير ، وسبعة مدرسين و ٢٥٣ تلميذاً وبهذا أصبحت مديراً محترماً للمدرسة ابتدائية .

كان سكرتير المدرسة شاباً يافعاً يتحدث دائماً بصوت عالٍ ، يوجه أوامره ونواهيه فى سهولة ويسر وكان فعل الأمر اذهب . تعال قد التصق بفمه ، وكان على اتفاق ضمنى مع كبار التلاميذ أن يقوموا هم أنفسهم بترتيب وتنظيم شئون المدرسة ، كان واضحاً أنه لا يحتاج حتى إلى رأس حمار ، ويستطيع أن يدير دفة المدرسة دون أدنى احتياج لمدير لها .

أما مدرس الصف الرابع فقد كان بديناً بشكل مفرط كأنه اثنان لكل منهما جثة ضخمة قد التصقا فى بعضهما . كان أول شيء تقع عليه عينى فى مكتبى شخص من هؤلاء الذين إذا رأيتهم فى الطريق تظن أنه أحد مديرى العموم ، كان يتحدث بالفاظ متقاة ؛ وربما لهذا السبب كان هو الذى قام بعد أن تركنا مدير المنطقة بالترحيب بى نيابة عن زملائه ، فقد قال حينها « إن شاء الله سوف نقضى عاماً دراسياً جديداً فى فصول المدرسة فى ظل مديرها الجديد » ، كان واضحاً أنه بهيئته هذه سوف يتعالى شيئاً فشيئاً عن كونه يعمل فى مدرسة ابتدائية ، عندما كان يتحدث كان دائماً يراودنى تفكير كيف يتاح لمدرس مثله مع راتبه القليل أن يكون له هذه الهيئة والوسامة ؟ فى الحقيقة قررت من وقتها أن أحلق ذقنى كل صباح ، وأن تكون ياقتى نظيفة دائماً ، وبنطالى مكوى بشكل جيد .

أما مدرس الصف الأول فقد كان نحيفاً ، لونه أسود فاحم ، له
لحية صغيرة أسفل ذقنه ورأس حليق بشكل جيد ، وياقة مقفلة دائماً
دون أن تغلقها رابطة عنق ، يشبه تماماً هؤلاء الكتبة الذين يجلسون
أمام أبواب مكاتب البريد ، بل إنه كان يبدو كأنه بواب ، كان دائماً ما
يلتزم الصمت ، وكان له الحق في ذلك ، فقد كان حقيق بي أن أكد
أن مثل هذا الشخص ليس لديه الجرأة على الحديث سوى داخل الصف
الأول ، وأن حديثه داخل الفصل لا يخرج أيضاً عن الألف بـمد ،
والسين في كلمة وسط . . . وما إلى ذلك . . . أما مدرس الصف
الثاني فقد كان قصيراً مخبولاً ، يصدر منه صياح بدلاً من كلماته ،
مصاب بحول في عينيه ولم أفهم في يومى الأول في المدرسة إلى أين
ينظر عندما يتحدث مع أحد ، ومع كل صوت صغير يصدر منه كان
يقهقه بصوت عالٍ . كانت هيئته تنم عن أنه مهرج بين المدرسين ،
فهو يرى من واجبه أن يتواجد معهم في كل فسحة ليكون مصدراً
للتفريغ عن زملائه . ولم يكن لدى ما يمكن عمله إزاء هذا
الموضوع ، لكن كنت دائماً أرثي لحال التلاميذ إذ كيف يكون في
مقدرتهم التزام الصمت في فصل يقف أمامهم فيه مثل هذا المدرس .

أما مدرس الصف الثالث فقد كان شاباً نحيفاً ، طويل القد ،
ذاوجه منحوت ، وذقن حليق بشكل جيد ، وياقة قميص عالية
منشأة، عندما كان يمشي كان يراودنى الشك في أن أقدامه سوف
تتعثر ، ويسقط على الأرض ، لكنه كان في حركته مثل الفريرة ،

يتحدث فى عبارات متقطعة ، وكان قفصه الصدرى لا يمكن أن يحتوى أكثر من ثلاث كلمات . كانت عيونه تصدر بريقاً عجيباً لا ينم عن ذكاء ، إنما كان هناك شىء فى بريق عينيه ينم عن أنه مصاب بمرض ما ؛ مما اضطررنى لأن أسأل السكرتير عما إذا كان مصاباً بداء السل ، وبالقسط لم يكن كذلك ، لكنه كان ريفياً ، يعيش حياته فقط ويدرس فى الجامعة .

أما الصف الخامس والصف السادس فكان يديرهما مدرسان معاً أحدهما يقوم بتدريس اللغة الفارسية والعلوم الشرعية والتاريخ والجغرافيا والمهارات وما إلى ذلك من هوايات ، كان شاباً يصفف شعره بالكريم يرتدى بنطالا ضيق الأرجل وجاكت ورابطة عنق صفراء عريضة عليها صورة لهلب كبير كأنه يحمله على صدره ، ودائماً ماتراه وهو يمسح بيده على شعره ، وبين لحظة وأخرى يعاود النظر من زجاج النافذة أما المدرس الآخر فهو الذى كان يقوم بتدريس الحساب والمراوحة ومواد أخرى وكان شاباً وقوراً مترناً للدرجة يبدو معها أنه من أهالى ما زندران ، كان على ثقة بنفسه ، وكان المدرس الوحيد بين المدرسين الذى يحتفظ بعلبة سجائر فى جيبه ، كان واضحاً أنه موفق فى فصله . غير هؤلاء كان لدينا مدرس للألعاب ، وهو الذى رأيت بعد ذلك بأسبوعين ، كان من أصفهان ومن هؤلاء المتسربين من عملهم دائماً ، فقد كان لا يأتى فى الأسبوع أكثر من ثلاثة أيام ويتغيب بقية الأسبوع .

كان على أن أعمل مع مثل هؤلاء الرجال ، وأتقدم بالمدرسة بمعاونتهم . فمتابعة ٢٥٣ تلميذاً وتوصيل المعلومات إليهم ، ونقلهم ناجحين من صف إلى الذى يليه لم يكن بالأمر الهين ، ولكن بالنسبة لشخص مثلى قد هرب من قفص التدريس فأى مكان من الممكن أن يكون جنة ، وكل عمل يصبح مرغوباً فيه ، كان هذا حيث شمرت عن ساعد الجد وألقيتُ بنفسى وسط المعترك .

فبعد أن رحل مدير المنطقة التعليمية وتركنى معهم أخذت أسأل عن أحوالهم جميعاً بكل حميمية ، ثم جاملت الجميع بأن قدمت لهم السجائر ، وكنت فى قمة رغبتى فى التعاون والتضامن مع الجميع ، وسعيداً لأنه سوف تتاح لى الفرصة لأتعرف على مثل هذه النماذج الجديدة من البشر ، وأنى سوف أخبر بقلب كل واحد منهم ، وأنى سوف أدخل عالماً جديداً كان مغلقاً على من قبل .

أخذتُ أسأل عن أحوال كل واحد منهم . كان مدرس الصف الثالث هو فقط الذى يذهب إلى الجامعة ويدرس فيها ، وهذا الذى يحتفظ بهلب على صدره كان يدرس اللغة الانجليزية فى دراسة مسائية لكى يذهب إلى أمريكا ، كان المتزوجون منهم اثنين فقط كاتب البريد مدرس الصف الأول ، والمدير العام مدرس الصف الرابع .

كان هؤلاء المدرسون يقضون أوقات الفسحة ، وما بين الحصص فى حجرتهم دون تناول الشاى أو أى مشروب يثرى جلساتهم ، يتجمعون فقط فى المكتب ليثبت كل منهم للآخر أنه قد خرج سالماً

من الفصل ليعاود الكرة ، ولم يكن من الممكن أن يستمر الوضع هكذا؛ فهناك تقاليد يجب أن تراعى . مددت يدي بخمسة توماتات ، وضعتها فوق المنضدة واتفقنا على أن يتم تجهيز كل ما يلزم لإعداد الشاي ، وأن يقوموا بأنفسهم بإعداده ، وتم تكليف ذلك (الأحول) بهذه المهمة .

بعد ذلك ضربوا الجرس ، واصطف الأطفال في طوابيرهم ، ووقف السكرتير قلقاً أمام باب الحجرة - كأنه يريد أن يقول شيئاً - إلى أن حضر (المدير العام) لمساعدته - فقد كان هو نفسه يعلم أنه بهيئته هذه يستطيع أن يدخل أى مكان ويتدخل فى أى موضوع أو مشكلة - وأخبرنى أنه من الأفضل أن ألقى كلمة أمام الطابور ولم أر غضاضة فى هذا . قام السكرتير بتلخيص الموضوع فى كلمتين أمام الأطفال ، وأخبرهم أننى وصلت فأخذ الجميع فى التصفيق .

كانت رؤوس الأطفال جميعها حليقة ، بعضهم له ياقة بيضاء ، وأغلبهم يلبس حذاءً فى قدميه ، كان ما يقرب من عشرة أو اثنى عشر تلميذا يرتدون ملابس تثن فوق أجسادهم ، وكان هناك طفل صغير الجسم ذو شعر أحمر يقف فى طابور الصف الثالث يحاول أن يخفى جيب سترته الممزق ، بينما كان تلاميذ الصف السادس يهمسون فى أذان بعضهم بعضاً ، وعندما وقفت أمامهم كان هناك فى قلب طابور تلاميذ الصف الأول تلميذان أو ثلاثة يحاولون تنظيف أنوفهم بكم سترتهم . لم يكن لدى ما أقوله لهم ، أتذكر فقط أننى أشرت إلى أن

المدير الجديد يود من كل قلبه أن يكون كل تلميذ منكم فى منزلة ابنه ، ولا يدرى الآن ما الذى سيفعله مع هذا العدد من الأبناء . فضحكوا دون صوت ، بينما انفجرت ضحكة من أحدهم فى الصفوف الخلفية . وأدركتُ حينها أن التعامل مع الأطفال يستلزم أساليب خاصة حتى فى لغة الحوار . بعد هذا الموقف تملكنى الشعور بصعوبة الأمر « لا ياسيدى ليس الأمر سهلاً كما توقعت ! » .

قبل هذا كنت أحسب أننى سوف أذهب وأنا فارغ البال والخطاير من التدريس وإدارة الفصل لأغلق باب حجرة مكتبى علىّ وأباشر مهام وظيفتى ويقوم السكرتير أو أى شخص آخر بإدارة دفة الأمور ، وأن تكون هناك تشكيلات إدارية بحيث لا يحتاج الأمر إلى تدخلى ، لكنى أدرك الآن أن الأمر ليس بهذه السهولة . هب أن تلميذاً منهم قام فى الغد بضرب زميلٍ له وشجّ رأسه ؛ أو أن واحداً منهم صدمته سيارة ، أو سقط أحدهم من الطابق العلوى ، فما الذى سيقع على رأسى ! ولم أعد أتذكر الآن ماذا قلت لهم فى كلمتى ، وما بقى فى ذاكرتى هو أنه عندما علا صوت الجرس واتجهت الطوابير للسير إلى الفصول كان العرق يغمرنى ، وأخذت أتمشى فى الردهة حتى يتحرك المدرسون من أماكنهم ثم دخلت إلى مكتبى .

كان معى السكرتير فى مكتبى عندما دخل شبحٌ من فتحة الباب ، يتسحب فى بطيء إلى الداخل . . كان هذا الشبح رجلاً ، فرأش المدرسة بوجهه الريفى وذقن غير حليق ، وقد قصير ، كان يمشى فاتحاً

قدميه ، يحافظ على يديه أثناء سيره بعيدة دائماً عن جسمه ، وعندما يتكلم تتلاحق أنفاسه ، وكأنه وصل لتوه من مسابقة في العدو . دخل وظل واقفاً إلى جانب الباب ، وأخذ ينظر مباشرة إلى عيني . سألته عن أحواله أيضاً فأيا كان هو . . وأيا كانت وظيفته فهو يستطيع أن يتحمل جزءاً من هذا العمل الثقيل ، وكان معه في المدرسة زوجته وطفله الذي يحتمل أن لعبه أكثر من المؤلف ، كان راتبه تسعين تومانا . يسكن هو وأسرته في حجرة مخزن إلى جوار دورة المياه . ولم يكن قد استطاع بعد الحصول على بدل حراسة للمدرسة الذي يصل في الغالب إلى خمسة تومانات شهرياً ، ورغم ذلك كان قد اشترى زوجين من السجاد الصغير بالتقسيط بمبلغ ٣٥٠ تومانا بقي عليه منها ٢٠٠ تومانا فقط . استطاع أن يفرغ كل أحزان قلبه أمامي في دقيقة واحدة . وبعد أن سألتني الدعاء له ذهب ليحضر لي كوباً من الشاي .

قال السكرتير متحدثاً عنه : كان من الفلاحين في أملاك صاحب المدرسة ونتيجة لإصراره قامت مديرية التعليم بتوظيفه ، وهناك بند كامل بشأنه في بنود اتفاقية تسليم المدرسة للإدارة التعليمية . وأدركت حينها أنه يعتبر هو وزوجته وابنه من مستلزمات المدرسة وأثاثها . وكنت أعلم بخبرتي أن الخدم الذين يتقلون مع انتقال الملكية يصبحون سبباً في إثارة المشاكل في أى شيء يفعلونه ، صرحت بهذا للسكرتير فانفتحت أحزان قلبه وقال : « أد إيه هوه خاين للعيش والملح وأد إيه وشه مكشوف ، وكام مرة لحد دلوقتى يقف فى وش الأساتذة » وما

إلى ذلك من أقاويل . . . إلى أن انتقلت إليه هو شخصياً . كان قد تخرج من معهد المعلمين منذ عام ، وعمل مدة هذا العام فى مدينتى « كرمسار وكرج » ، وانتقل إلى هنا مع بداية هذا العام ، كان أبوه متزوجاً من امرأتين ، له من الأولى ولدان ؛ تم انتشال جثة كل منهما من النهر مطعون بسكين ، أما من زوجته الثانية فلم يعيش إلا هو ، حيث تعلم وتخرج وأصبح ملزماً بالإنفاق على أمه المريضة ، أما عن أبيه فقد انقضت سنوات انقطعت أخباره فيها ، والأسوأ من هذا كله تحمله لأعباء ومصاريف العلاج والدواء . . . وهو يسكن مع أمه فى حجرة يبلغ إيجارها خمسة وخمسين تومانا شهرياً ، بينما يبلغ راتبه مائة وخمسين تومانا لاتفى بشئ يذكر ، وربما استطاع بصعوبة بعد ثلاث سنوات أخرى أن يحصل على بدل السكرتارية فى هذه المدرسة بعد أن عرفت منه كل هذا قمنا معاً كى نمر على الفصول .

كان الصف الثانى إلى جانب مكتبى ، حيث كان الأطفال يحاولون فى جهد جمع ١,٧٥٤ مع ٢٦١ ، بينما مدرسمهم بعينه الحولاء يشير إلى المقعد الثالث ويذهب إلى الأول . بعد الصف الثانى مباشرة كان يوجد قاعة ، خالية واسعة يحمل سقفها عمودان مربعان طلياً باللون الأبيض وفى آخرها ثلاث أو أربع مناضد وأريكة محطمة ، وقد غطى الحائط المواجه بصور أبطال الرياضة الإيرانية التقليدية ، وأبطال اختراق الضاحية السود ، والمصريين رافعى

الأثقال ، أما الحائط على الناحية اليمنى فقد غطته خريطة كبيرة لآسيا وعليها إهداء تحتها «إهداء للمدرسة من على مردان هندی » كماركة مسجلة لمصنع من رسمها . خطوطها بدائية ، ولون زرقة بحارها باهت مثل ريق الميت ، ويحز الخزر فيها على هيئة صدرية ، وخطوط السكك الحديدية عريضة تملأها كلها ؛ حتى أنها تمر على كرمان . وجزر أندونيسيا كلها كتلة واحدة وتلتصق بسنغافورة ، وكل قطعة أو مساحة في أسفل الخريطة لها لون محدد . وهى مجموع الألوان الموجوده فيها مثل بقجة من القماش مرقعة برقع كثيرة ، وكل عقلة إصبع فيها محددة بعلامات الحدود ، وعليها شعارالدولة وعلمها والعملة والطابع ، وما إلى ذلك من التفاهات ، وكل دولة أو إمارة فى يد أمير أو خان أو شيخ يقودها هو وقبيلته أو أسرته إلى طريق الحرية والرفاهية والعمران . وتذكرت تلك الأيام التى كنت أمر فيها بنفس المرحلة التعليمية . وأدركت بالفعل كيف كانت الأمور مريحة بالنسبة لنا عندما كنا أطفالا منذ عشرين عاما ! حتى خريطة العالم التى كنا نرسمها لم نكن نحتاج فى رسمها لأكثر من لونين أو ثلاثة لرسم آسيا كلها وأفريقيا وأستراليا ؛ فقد كنا نستخدم اللون البنى للتعبير عن الامبراطورية الإنجليزية فى نصف آسيا وأفريقيا ، واللون القمحي لفرنسا فى نصف الكرة الآخر ؛ والأخضر أو الأزرق - لا أعلم - لهولندا وباقي الدول الأخرى ، أما الآن فما أعجب ما يفعله ويرسمه هؤلاء الأطفال .

قلت هذه الجملة الأخيرة بصوت مسموع ، فسأل السكرتير :
« حضرتك بتقول حاجة ؟ » قلت : لا شيء ... وسألت : فيم
تستخدم هذه القاعة ؟ وكانت الإجابة : لا شيء ... لافيلم ،
ولأنشاط اجتماعى ولا تمثيل ، فهى تستخدم عند الامتحانات فقط ،
فالدخول إليها يشير حاسة الشم عندك قليلا ، عندما تتعرف على رائحة
عرق الأطفال الذى يتصعب منهم وهم يؤدون الامتحانات التحريرية ،
وتحس فيها بحرارة أجسامهم التى أصيبت بالحمى . كانت هذه القاعة
تماماً مثل حجرة أغلق بابها بعد أن أطفأت فيها المدفأة بالأمس ،
ووجدت نفسى أتحسس الحائط رغماً عنى . لم يكن ساخناً ، وكذلك
كانت الأعمدة التى تتعجب لسمكها ومتانتها وكيف تحمل فوقها كل
هذا العبء من التعليم والثقافة والتربية ، ثم صعدنا إلى الطابق
العلوى .

كانت هناك خمس حجرات مصطفة إلى جانب بعضها البعض
أمامها إيوان مفتوح ، تسطع فيه الشمس ، وكلمات القرآن وآياته
تخرج من نافذة الصف الرابع مجلجلة فى تجويد متقن لتسرى فى
الصحراء التى انبسطت حول أرض المدرسة والتى تسطع الشمس فوقها
بأشعتها الذهبية لتكسيها مهابةً وجلالا . إنه نداء الإسلام ! أى باعث
فيه على الطمأنينة والسكينة ! لهؤلاء الأهالى الذين لم يأتوا بعد
ليقيموا فى هذه الأراضى ويحفروا آبار الحياة فيها . لا خطأ لاوقف فى
غير موضعه ، لا إدغام فى غير محله ، كنت على يقين من أن معلمه
ليس له أى فضل فى هذا الأمر ؛ فمن المؤكد أن هذا التلميذ يتردد فى

المساء على مجالس قراءة القرآن لأن القائمين على مدارسنا ليس لهم مثل هذا الرواء . فعلاً . . حق للأهالي القادمين إلى المنطقة أن يرتاح بهم .

كان الصف الثالث إلى جانب درج السلم ، علموا بقدومي فأخذت المقاعد تصدر أصواتها . كانوا في حصة إملاء ، ومدرسهم يدور حول الفصل بنفس الأقدام التي تشبه الفريرة ، ويملى عليهم « سعدى آزاده ای است افتاده » ونظرت تحت يد أحدهم فإذا به قد كتب « آزادئیس توفتاده » وأخذنا نكمل المرور على بقية الفصول .

كان مدرس الصف الرابع قد جلس بشقله ، وتعجبت كيف يتحمله الكرسي . لم أميز فيهم ذلك التلميذ الذي كان يقرأ القرآن ، فلو كنت قد دخلت عليهم لكان الجميع قد وقف ، ولم أكن أريد لأزعجهم فأطللت برأسي من النافذة وقلت : أحستم ، ورجعنا .

كان الصف الخامس في حصة حساب ومراجعة ، وكانت السبورة مليئة بالأرقام ، لم يتبه المدرس لوجودنا ، فسرنا في طريقنا .

بمجرد أن فتحنا باب الصف السادس تنامي إلى سمعي « . . . وك يلعن أبوك وأمك » وفوجيء الشاب ذو الشعر المصفف بالكريم بوجودنا بينما تلون وجه أحد التلاميذ بلون البنجر الأحمر . قطعاً كان هو الذي تلقى هذا السباب ، وظهر أثره على وجهه ، كانوا في حصة قراءة للغة الفارسية ، وإذا بالمدرس واضعاً يديه في جيوبه وقد مد صدره إلى الأمام يفتح لسانه بالشكوى :

- سيدى المدير ، ما ينفعش معاهم الأدب من أصله . اقرأ إنت
... وشوف ازاي أنا بتابع سيادتك بكل اهتمام « وقطعت
كلامه عند الميم الأولى وقلت :

- « اللى إنت بتقوله صح ، لكى سامحه علشان خاطرى المرة
دى همه لازم يكونوا أولاد شطار . »

وخرجنا من الباب . بعد الصف السادس كانت هناك حجرة
صغيرة طويلة متوسطة العرض ، لها نافذة إلى الجهة الجنوبية مثلها فى
ذلك مثل باقى الحجرات ، ونافذة كبيرة إلى الجهة الشمالية ، حتماً
سوف تكون هذه حجرتى ، بها مكتب ودولاب أو مكتبة ، كلاهما
خالٍ ، ليس فى الإمكان أفضل من هذا ، بعيدة عن الضوضاء ،
شمسة ، عندما تغلق بابها لا يدخلها حتى صوت القرآن ، فما بالك
بصوت الأطفال وضجيجهم فى فناء المدرسة ، كان المدرسين أيضاً إذا
كان لديهم ما يعرضوه على فسوف تنهك قواهم بعد أن يصعدوا كل
هذا الدرج ، أخذت قرارى بهذا ، ونزلنا بعد ذلك .

وسط فناء المدرسة كان يوجد حوض كبير للمياه ، ضحل ، كان
هو المكان الوحيد فى المدرسة الذى تتوافر فيه شروط تناسب القصيرين
من الأطفال . كان الطرف الآخر من الفناء مخصصاً لشبكة كرة
الطائرة التى بدت ممزقة فى موضعين أو ثلاثة تم رتق فتقها بالسلك ،
بينما يحيط بالفناء سور عالٍ يشبه تماماً سور الصين . سد مرتفع فى
مواجهة أى هروب محتمل .

غداً اليوم التالى ذهبتُ إلى المدرسة مبكراً ، حيث كان التلاميذ يتوجهون فى صفوف إلى فصولهم ، بينما وقف السكرتير فى الردهة والعصا فى يده ، واثنان فقط من المدرسين فى المكتب ، واتضح لى أن هذا دأبهم كل يوم . أرسلت السكرتير إلى فصل ثالث ، وتوجهت بنفسى لأتمشى أمام باب المدرسة ، كانت هناك حارتان إلى جانب الضلعين الشمالى والشرقى للمدرسة ، حارتان كيفما اتفق ؛ تعبران الصحراء الخالية طويلتان فى استقامة ، لتصلا فى النهاية إلى الشارع الرئيسى المسفلت والذى كانت تمر فيه سيارة النقل العام ، مزروع بالأشجار والمحال التجارية والعمران ، واعتقدت أن المدرسين سوف يروننى - من أى اتجاه يأتون منه - واقفاً إلى جانب المدرسة . وأن الخجل سوف يستأبهم طوال طريقهم إلى ، ولن يتأخروا بعد ذلك . لكن أكان من اللائق أن أبدى هذا القدر من التشدد مع بداية عملى فى المدرسة ؟ وفجأة ظهر شبح فى نهاية الطريق الجنوبى ؛ كان ذلك الشاب الذى يصفف شعره بالكريم . عرفته من قده القصير وما يأتى به من حركات أثناء سيره من المحتم أنه رآنى لكنه ظل كما هو فى مشيته أبطاً من مدرس يحضر متأخراً عن مواعده أمام مدير مدرسته . بل حتى عندما اقترب أكثر اتضح أنه كان يصفر بلحن من ألحان تلك الرقصات الأوربية كان يرانى حتماً من على هذا البعد . إلى درجة أننى حتى كنت أرى الهلب الكبير فوق رباطة عنقه ملتصقاً على صدره

لا يتحرك ، فكرت فى أنه « ليس لديه غير رباطة العنق هذه » ولكن الجبان كان يمشى فى ببطء شديد . ولم يترك لى فرصة أصلاً لحثه على الإسراع فى مشيته وهممت بأن أدخل من الباب وأتركه ، وفجأة أحسست أنه غير قليلاً من مشيته وأسرع فيها . أغلق أزرار سترته ، وتوجهت إلى أنظاره ، وبدا وكأنه أوماً برأسه قائلاً « كويس ، حصل خير » . ويعلم الله ماذا كان سيحدث لو لم يفعل ذلك . فعلى الأقل كنت سوف أدخل إلى المدرسة وأغلق على باب مكتبى وكأن شيئاً من هذا لم يحدث . عندما ألقى بالتحية ، بدا وكأنه يريد أن يقول شيئاً ، إلا أننى بسطت يدى فى اتجاه باب المدرسة ، وقلت :

- « اتفضل ياسيد اتفضل التلاميذ منتظرين » .

فى الحقيقة مر الموقف بسلام . قطعاً لم يكن يرانى . أو أنه كان غارقاً فى التفكير فى ماذا ؟ لا أعلم . هل فى الفتيات اللاتى رآهن البارحة فى درس الإنجليزية . أو ليس برجل تعتوره أحاسيس الرجال ؟ لابد أن لديه ما يشغله لديه آلامه ؛ يتجرع معها غصة قلبه ، فشاب مثله يصفف شعره بالكريم ويربط على صدره مثل هذا الهلب لا يستطيع أن يظل وحيداً ؟ ربما تأخر به الأتوبيس ربما كان الطريق مغلقاً ؛ ربما أغلقوا الطريق ليأتى ذو رقبة غليظة من أقصى الدنيا لينال نصيبه من مائدة على المرتضى هذه . وعلى أى حال فقد سامحته فى سريرتى وقلت لنفسى « أحسنت أنك لم تسيء إليه فى القول » وفجأة ظهر على البعد هيكل مدرس الصف الرابع ناشراً رايته ، وبمجرد أن

رأى من بعيد ، أخذ يجرى تقريباً ، أقدامه طويلة ، تساعد حتماً على أن يجرى بسهولة ، لكن جسمه كان ثقيلاً ، ياله من عذاب كان يتحمله فى ذلك ! ولم أتحمل أنا هذا المنظر . « ما أسوأ ما تفعله . بسم الله فى البداية ، ثم على الدنيا السلام ! » ودخلت إلى المدرسة وجلست فى المكتب وأخذت أشغل نفسى بشيء أفعله ، حيث وصل تتلاحق أنفاسه ، وكان العرق يتصبب من جبينه للدرجة أخجلتني . حتى تحيته لى كانت مبللة بالعرق . عندما رددت عليه التحية أردت أن أسأله « إذا لم أكن واقفاً هل كنت ستجرى هكذا ؟ » لكنى رأيت أن هذا من السماجة ، وعدلت عنه ، قلت : اجلس ، وأعطيته فى يده كوباً من الماء ومع مناولتى له منحة ابتسامة فاترة ، ولما هم ليذهب . قلت :

- كده أنت خسيت اثنين كيلو .

استدار ، ونظر إلى مبتسماً ، ومضى لحال سبيله . كنت أريد أن أخرج من مكتبى وأذهب إلى حجرتى لأرى ما إذا كان الفراش قد جهزها أم لا ؟ وإذا بالسكرتير يهبط الدرج مقرعاً بأقدامه . ومنذ ذلك اليوم وأنا أميز صوت أقدامه ، كان يمشى واثقاً فى نفسه راضياً عنها ليدس الزمان والمكان وكأن البلاطات كلها فرشت صدورهما على الأرض من أجل عيون أقدامه . وقبل أن يصل إلى قال :

- « شفت حضرتك ! إزاي بيسجوا المدرسة ، أخينا الأولانى مفيش فى دماغه أى حاجة . أما الثانى ده » .

أردت أن أحكى له مهزلة التخسيس ، لكن رأيت أنها مزحة سخيفة ، فعدلت عن ذلك وسألته :

- « يعنى دلوقتى فيه فصلين فاضيين ؟ » .

- « نعم حضرتك ، الصف الثالث عنده ألعاب . وقلت يقعدوا ياخذوا إملا حضرتك ، وبرزه مدرس الحساب بتاع الصفين الخامس والسادس ما جاش حضرتك . » .

وسحب إحدى المناضد إلى جانب الحائط ، وصعد عليها ، ورفع صورة كبيرة لمقابر الهخامنشيين كانت معلقة على الحائط وقال :

- « بص حضرتك ... »

رأيت على ملاط الحائط شعار المنجل والمطرقة رسم فى عُجالة دون دقة بقلم رصاص أحمر رفيع السن . ودون أى سؤال منى تابع حديثه :

- « ده حضرتك من آثار عهدهم ، فى أول السنة لى جيت هنا ... كان رئيسهم لسه هنا حضرتك ، وكان كل همهم الحاجات دى يبيعوا جرايد ينشروا فكرهم ويرسموا المنجل والمطرقة حضرتك ، ولما أخذوا ريسهم أقول إيه علشان أشرح لك حالهم حضرتك اتلخبط حالهم حضرتك أولياء أمور العيال جم ميت مرة يشتكوا .. حضرتك وثلاث مرات يجوا من عند الحكمدار العسكرى يسألوا عن بقيتهم فى ... »

وقفز ليتزل من فوق المنضدة . اهترت المقابر بكل نقوشها يمينا ويساراً مرتين أو ثلاثة واستقرت لتغطى الشعار من جديد . قلت :

- « همه لسه موجودين ؟ »

- « أيوه حضرتك ، بس بعد آيه ! واحد منهم حضرتك هوه اللي ماجاش لحد دلوقتى ، كل يوم نص ساعة ، ساعة إلا ربع يتأخر - حضرتك ، والثانى مدرس سنة ثالثة ، ومهما تقول لهم .. مفيش فائدة حضرتك . »

- « طب ليه ما مسحتهاش لغاية دلوقتى ؟ »

- كويس ! بس الواحد يحكى لين اللي بيوجعه فى قلبه ؟
ياسيدى دول بيعجوا ويقولوا للواحد فى وشه وهو وسط الناس : أنت جاسوس عميل ! أنا لغاية دلوقتى مكلم اللي لسه ماجاش ده مرتين فى الموضوع .. حضرتك . ومافيش فائدة ! »

بعد هذا أخذ يلقي أمامى محاضرة يشرح لى فيها كيف حولوا المدرسة إلى خراب وأفسدوها ، وكيف فقدت المدرسة ثقة الأهالى فى المنطقة ولم يعد فيها مجلس للآباء ، ولا مساعدات للفقراء ، وكل يوم مشاكل وقلق من الحكمدار العسكرى ، وكيف جعلوا الأولاد يتمردون على كل شىء ، وما إلى ذلك .

بعد أن انتهى من محاضرتة ، أخرجت منديلى وأعطيته له ، وذهب لينظف الشعار ، وأوضحت له أننا هنا لن نكون منكر ونكير

لكى نحاسبهم وفهم من كلامى أننى بحكم سنّى لا أستطيع أن أفعل شيئاً ، وأن هناك من يدفع بسخاء لمثل هذه الأعمال ، كما أن لها رجال مدربون يعرفون عملهم جيداً وأن الموضوع لا يحتاج إليه ، ومن الأفضل لنا أن نهتم بعملنا . بعد ذلك قمت لكى أذهب إلى حجرتى ، وعلى درج السلم أخذت أفكر ربما تغطى هذه الشعارات فى كل مكان من العالم بمثل هذه الصور . وعندما فتحتُ باب حجرتى كادت رائحة ترابها الرطب تزكم أنفى وكان مدرس آخر قد وصل ، فخرجتُ إلى الردهة وناديت السكرتير بصوت عالٍ بحيث يسمعه كل من فى المدرسة ، وقلت له أن يضع بالقلم الأحمر ساعة تأخير لحضرة المحترم .

فى يومى الثالث توجهتُ إلى المدرسة أيضاً منذ الصباح الباكر . ولم أكد ألف من خلف سورها حتى اصطدم وجهى بصوت صراخ التلاميذ وبكائهم فأسرعت الخطى ، وإذ بى أرى خمسة تلاميذ داخل الردهة يتلوون من الألم ، والسكرتير فى يده عصا يقوم بضربهم على أيديهم على التوالى ، فى دفعات منتظمة كل تلميذ منهم ضربتين بالعصا على كفيه ، ثم يعيد الكرة من جديد ، وكانت طوابير الفصول تشاهد هذه المباراة . والأطفال يتوسلون ويبكون ، ورغم ذلك يبادرون بمد أيديهم فقد تعودوا على ذلك . اثنان منهم كانا قويا البنية يتظاهران بالبكاء والعويل ، وكان أحدهم على قدرٍ من المهارة بحيث كان يسحب يده من تحت العصا كلما نزلت عليها ، لتزل على لاشيء قلت : هذا من حسن حظه ، وحتماً هو الذى جعل السكرتير عصياً إلى هذه الدرجة ، ولكن كان بينهم تلميذ صغير الحجم إلى درجة ظننت معها أن العصا ستاكل يده ، ولم يكن من الممكن التشين على مثل هذه اليد الصغيرة . ومن المؤكد أن العصا كانت تصطدم بطرف أصابعه ... آه أعرف كيف ستمزق جلده . أو أنها تصطدم بمعصمه ... حتى أوشكت أن أصرخ أو أركل السكرتير برجلي ليطير إلى الناحية الأخرى . كان ظهره إلىّ ، ولم يكن قد رآنى بعد . كان كل شيء واضحاً فى عيون الأطفال فعندما دخلت من باب المدرسة انتشرت

الهمهمة بين الصفوف وأدركت معها بسرعة أنه من الصعب أن يعاقب السكرتير تلميذاً في وجود مدير المدرسة ، فما بالك إذا كان العقاب يدور أمام التلاميذ جميعاً . كظمت غيظي وأخذت أصعد الدرج في هدوء . أحس السكرتير بوجودي فوقفت تحيَّته لى داخل حلقه ، فتدخلت في الأمر ورجوته أن يسامحهم جميعاً هذه المرة من أجلى ، لم أكن على علم بما فعلوه بالضبط . هل حضروا متأخرين ؟ أم أنهم لم يحلقوا شعرهم ؟ أم أن السكرتير وجد وسخاً في آذانهم ؟ أو أن ياقاتهم لم تكن نظيفة أو أنهم كانوا قد سرقوا أقلاماً من زملائهم ، أو مزقوا وسادات المقاعد في أتوبيس خط الضواحي بالموسى ، أو عثروا على شيء في الشارع أو الحارة ولم يسلموه إلى السكرتير ؟ أو أى شيء آخر .

بعد ذلك قدم السكرتير أمامى تقريراً شفاهياً عما فعلوه ، كما حدثنى أيضاً عن أفعال سيئة أخرى يفعلونها في العادة . لكن كف ذلك التلميذ صغير الحجم كانت صغيرة بدرجة كبيرة ، وكان وجهه يشبه وجه قطه إلى حد بعيد ، وكان يذرف الدمع إلى درجة لم يبق معها أمامى سوى أن أضرب هذا السكرتير وأحطم عصاته على رأسه .

توجه الأطفال إلى صفوفهم وهم يتشاهقون بكاءً ، بعدها ضرب الجرس وتوجهت الصفوف إلى فصولها ووراءهم معلموهم الذين كانوا

قد حضروا جميعاً فى موعدهم . وذهبتُ إلى الحجرة التى أُخليت وتنهت إلى أن مجموعة من العصى قد سقطت من الدولاب ، نظرت إلى السكرتير الذى حضر إلى جانبى لتوه ، وقلت : كان من الممكن بهذه الطريقة أن تشج رأس أحدهم ، إلا أنه اندفع فجأة قائلاً :

- « إذا ما وقفتش قدامهم حضرتك يوم واحد يركبك على طول . حضرتك ما تعرفش أد أيه بقوا عفاريت وزى البغال الهايجة . »

كان يكرر كلمة حضرتك وسيادتك هذه مع كل جملة يقولها ... مثل أطفال المدراس . أحسست أننى إذا قلت كلمة واحدة أخرى بشأن هذا الموضوع من الممكن أن يقف فى وجهى ويعارضنى ، فغيرت الموضوع وسألته عن أحوال والدته . انفرجت أسارير وجهه بالابتسامة ونادى الفراش ليحضر له ماءً ، ولا أعلم لماذا تملكتنى رغبة الشيوخ فجأة وأخذت أمطره بوابل من النصح والتوجيه ، وعرفته أننى شخصياً طوال سنوات دراستى فى المكتب والمدرسة الابتدائية والاعدادية والثانوية وكافة الأماكن الدراسية الأخرى لم أتلق عقاباً سوى مرتين فقط ؛ مرة علّقونى على الفلكة أمام باقى الأطفال ، وكانت جرّمتى أننى صعدت أعلى مأذنة مسجد « مُعير » التى كانت تطل على مدرستنا وتكشفها كلها ! وكانت المرة الثانية وأنا فى الصف الخامس فى المدرسة الإعدادية ، حيث عاقبنى مدير المدرسة على سبيل الخطأ وضربنى مرتين بالعصا ، وبعد أن اكتشف خطأه ، أراد أن يعوّضنى

على ذلك فأرسل إلىّ في مكتبه - ولما كنت من الأشراف - أخذ
يوجه اعتذاراته إلىّ وأهداني كتابا مازلت أحتفظ به . وأتذكر أنني
ظللت أتحدث معه لمدة نصف ساعة ، حكمة الشيوخ ، أما هو فشاب
يمكن تدجينه بسرعة .

بعد ذلك طلبت منه أن يقوم بتكسير كل العصي ، فكسرها كلها
بالفعل بعدها ذهبت أنا إلى حجرتي .

مع أسبوعى الأول فى المدرسة بدأتُ بالفعل أقوم بأعمال جديدة فغداً سوف يأتى الشتاء ، والدفايات التسع الموجودة والتى توقد بالفحم ، وعملية إحضار الماء وتجهيزه أربع مرات يومياً ، وتنظيف الغرف والفصول وكنسها ، كل هذه الأعمال لا يمكن أن يقوم بها فراش واحد . فطلبت من الإدارة التعليمية أن ترسل فراشاً آخر للمدرسة ، وكنا ننتظر وصوله كل يوم .

كنت لا أغادر المدرسة فى أوقات الظهيرة فى أيامى الأولى بالمدرسة ، كنت أمضى هذه الأوقات بقلب قلق ويد مرتعشة وبعد ثلاثة أيام أو أربعة وجدت فى نفسى الجرأة والشجاعة . كنت أحس أن المدرسة لن تصبح كما أريدها تماماً . ولم أكن أنا كذلك أيضاً - لافرق . كنت أعلم أيضاً أن أوقات الظهيرة غالباً ما كانت تشغلها حصص الألعاب وكان الصف الأول كذلك ، ولم يكن يتابنى أى قلق أو خوف بشأن الأطفال الصغار الضعاف ، وشبكة كرة الطائرة داخل المدرسة ولاخطر فى ذلك . كما أن الصحراء المحيطة بالمدرسة لم تكن هناك سيارات تمر بها .

ورغم أنها كانت مليئة بالارتفاعات والانخفاضات ، وتملأها مياه المطر المتجمعة ، ولكن على أى حال فإن فناء المدرسة لاشئ أوسع منه .

كما كان المدرسون يتناوبون موضوع الذهاب من المدرسة بعد الظهر حيث يذهب فى كل مرة اثنان منهم ويبقى الباقيون فى أسلوب من التضامن بشكلٍ ما . لم يكن هناك أدنى خوف من أن يصاب الأولاد بأى ضرر من برودة العلم والثقافة . وإذا حدث لا قدر الله أى شئ من هذا القبيل كنت سوف أعرفه فى صبيحة اليوم التالى عندما أكون فى المدرسة .

ذات يوم وصل إلى المدرسة أحد المفتشين ، وقضينا نصف ساعة فى الترحيب به ، قدّمنا له الشاى وتبادلنا التحيات والاحترامات ووقع فى دفتر التفتيش « أن المدرسة رغم عدم وجود الإمكانيات تدار بأسلوب جيد للغاية » . وقد عرفت منه أنه طبيب صحة لم يستطع بعد أن يخفى لهجته القزوينية بين المصطلحات الأوربية لعلم الطب . كان من المقرر أن يعاودنا مرة كل شهر ليحمى عيون الأطفال أولاد الناس لإزالة إفرازاتها ، ويرفع جفونهم بسرعة عجيبة لو حاول أن يفعلها معى لصممت أذنه بصرخة منى . وكتب على ميركروكروم وقطن طبى وشاش أيضاً لكى نحضرها من الإدارة التعليمية . لم تكن مثل هذه الأشياء لدى الإدارة بالفعل واضطربنا لأن نطلبها من أحد التلاميذ يعمل أبوه طبيباً فى الجيش ، وأحضرها هدية للمدرسة . كان الأطفال يصابون يومياً على الأقل ثلاثة أو أربعة فى أيديهم وأرجلهم ؛ يأخذون فى الجرى والركض فيقعون على الأرض ، يعدون الدرج وينزلونه يقعون على الأرض، يلعبون مع بعضهم يقعون على الأرض ،

وكانهم قد أكلوا ما يفقدهم توازنهم أو شربوا حتى الثمالة . وأكثر من هذا كله عندما يتعاركون كان العراق هو أبسط أشكال لعبهم فى أوقات الفسح ، فكنت ترى أو تسمع أن اثنين منهم قد هجما على بعضهما فى ركنٍ ما من الفناء بعدها يسقط أحدهما على الأرض لينتهى العراق ، وصياح السكرتير أو مرور أحد المدرسين لم يكن حتماً لينهى هذا العراق . كنت أظن أن السبب فى كل هذا الوقوع على الأرض هو أن أغلبهم لا يلبس فى قدميه حذاءً سليماً ، والذين كانوا يلبسون منهم أحذية سليمة وجديدة كانوا من أولئك الأطفال المدللين الذين لا يعرفون الجرى أو حتى المشى . يومياً كانت الجروح تعرف طريقها إلى الأيدي والأقدام مرتين أو ثلاث ، أو حتى تصل إلى الوجه أو الرأس ، وأصبحت أرضية حجرة المكتب مليئة ببقع ثابتة من الميركروكروم الأحمر هنا وهناك . كانوا يحضرون بأنفسهم ليأخذوا العلاج الذى كان فى متناول أيديهم ليمسحوا على جروحهم وجلطاتهم ثم يذهبون ، كان من المعتاد أن تجد الكبير فيهم يساعد الصغير فى هذه العملية ؛ وأحياناً ما يقوم الفراش أو السكرتير بهذه العملية ، وأذكر أننى قمت مرة بنفسى بهذه العملية ، حيث ربطت جرحاً لنفس هذا الطفل ذى اليد الصغيرة جداً ذى الوجه الشبيه بالقطعة حيث ضمّدت له جرحاً فى مفصل قدمه . ذات مرة أخرجت ملف الكهرباء والتليفون الخاص بالمدرسة من أرشيفها الحقيقى وقرأته ، اتضح لى أنه يمكن بقليل من السعى من جانبى أن تصل الكهرباء إلى المدرسة خلال سنتين أو ثلاث وكذلك التليفون ، راجعت إدارة المنشآت

التعليمية مرتين ، وفتحت الموضوع معهم من جديد ، كما طرحت الموضوع أكثر من مرة أيضاً على معارفى فى إدارة الكهرباء والتليفونات ، كانوا يظنون فى البداية أننى أريد أن أنجز أعمالاً خاصة بى على حساب المدرسة ، واضطرت لأن أوضح الأمور . إلى هذا الحد كنت أقوم بأداء واجبى .

لم يكن بالمدرسة مصدر للمياه ، لامياه صالحة للشرب ولاحتى من المياه الجارية ومع ذويان الثلوج فى الربيع ، كان يتم تخزين المياه فى خزان تحت الحوض تعلوه مضخة يقوم الأطفال بتشغيلها بأنفسهم ملأ الحوض عن طريقها ، كان صوتها الشبيه بالنواح والعيول يملأ الجو مصحوباً بضجيج الأطفال وصياحهم وكان هذا فى حد ذاته نوعاً من اللعب بالنسبة لهم ، حيث كانت السعادة تغمرهم ويتشون مع الضوضاء والضجيج . كان الضجيج والضوضاء صورة أخرى من صور ألعابهم المختلفة ، كانوا يصيحون ، يصرخون كان المضمون الذى يحتويه صراخهم يتراوح فى الغالب بين السباب والعتاب والضحكات والمجاملات . أما بالنسبة لمياه الشرب فقد كان لدينا خزانان سعة كل منهما مائة لتر ، من الزنك الأبيض يشبهان تماماً تلك الخزانات التى تقوم عند الأضرحة أو فى الأسبله على أربعة قوائم ، كانا يقومان عند طرف الفناء ، يتم ملؤهما مرتين كل يوم ؛ فبمجرد أن يضرب جرس الفسحة تجد هجوماً من الأطفال على الماء . ياله من عطش دائم كان بهم ! إنه يفوق مائة مرة ذلك العطش الذى لديهم

للعلم والثقافة ، هذا الماء كُنّا نحضره من نفس الحديقة التى يغطى صف أشجار الصنوبر فيها وجه السماء ببقعة سوداء عالية . قطعاً كان الفراش هو الذى يقوم بإحضاره . كان ماءً نظيفاً ، ويبدو هذا من ظاهر مجراه ، فقد تحققت بنفسى منها . وكنت كلما تطلب الفراش لآتجده وتسرع زوجته لتقول إنه ذهب ليحضر الماء . يستخدم فى ذلك دلوأ كبيراً ورشاشة مليئة بالثقوب لا يصل إلى المدرسة إلا وقد فقد نصف ما بها من ماء على الأرض ، وقد دفعت من جيبي ذات مرة لكى يتم إصلاح المضخة والرشاشة أيضاً فلم يكن يصح أن نترك الأطفال عطاشاً أو أن نتحمل النواح الدائم للمضخة فى انتظار وصول المدد للمدرسة .

وذاث يوم جاءنا مالك المدرسة . كان رجلاً وقوراً على درجة من كبر السن والرزانة حتى أنه كان يتخيل أنه حضر إلى المدرسة لتفقد المنزل الذى قام بتأجيره للسكان ؛ فمجرد أن دخل من بوابة المدرسة علا صياحه ينادى للفراش ، وأخذ يكيل إليه السباب وللإدارة التعليمية كذلك ، لماذا هب الأطفال حائط المدرسة بالفحم ؟ وقد عرفت من صراخه وقذائفه . جلسنا لبعض الوقت للتعارف والمجاملة ، وأخذنا نقلب خزانة الأسماء فى ذاكرتنا بحثاً عن أصدقاء مشتركين بينه وبينى . لم يكن هذا بالسهل الهين فقد كان عمره ضعف عمري ، ولكن وصلنا فى النهاية إلى شىء نلوك أَلستنا به عندها ارتاح كلانا وعرفنا عما يجب أن يدور حديثنا ، بعدها أخذ يسجل توصياته بشأن باب دورة المياه الذى أوشك أن يتآكل ، ومجرورها الذى امتلأ حتماً ، وخزان المياه الذى غزته طبقة من الطحالب ، ومواسير المياه التى ربما

تتجمد فى الشتاء وتنفجر ، والإدارة التعليمية التى بخسته حقه ، ، إنه إذا قام بمثل هذا العمل العظيم فى دولة أوربية لكانوا قد نصبوه على الفور عضواً فى هيئة أكاديمية وما إلى ذلك من ادعاءات وأباطيل .

قدمنا له الشاى ، وتعرف على المدرسين ، وأخذ يمنحنى وعوداً حتى ذهب ، كان كهلاً ، رجلاً مسناً بحق ، يتجسد فيه ماضى الذكريات ، وخزانة لحكايات وأحداث ووقائع لا معنى لها ، نموذجاً لوقار لا يضيفه على الإنسان إلا مرور العمر . جلس ساعة ونصف تماماً . كان يداوم على هذا البرنامج مرة كل شهر . وكان على أن أتحملة .

أما المدرسون . فكان كل منهم معه إشعار بأنه يقوم بتدريس ٢٤ ساعة أسبوعياً ، ولكن نصاب كل منهم فى الجدول لم يكن ليصل لأكثر من عشرين ساعة ، قبل أن أحضر أنا للعمل بالمدرسة كان السكرتير هو الذى يدبر هذا الأمر بنفسه ، شيئاً فشيئاً تنامى المعروف بيننا فقررنا أن نطلب مدرساً آخر من الإدارة التعليمية ليصبح نصاب كل منهم بذلك ١٨ ساعة شريطة ألا تتعطل المدرسة أبداً فى فترات بعد الظهر . حتى ذلك الذى كان يدرس بالجامعة ، كان يستطيع أن يواصل تعليمه مع ١٨ ساعة فى جدول أسبوعياً ، وكان أصعب ما فى هذا الموضوع (هو أن يقوم العملة بتنفيذه مع كاتبه) وقمت أنا بطلب مدرس آخر من الإدارة التعليمية .

مع نهاية الأسبوع الثانى وصل الفراش الجديد . كان يبلغ من العمر خمسين عاماً ، نحىلا يتسم بالذكاء والمهارة والحنكة ، يلبس طاقة شتوية ويرتدى رداء أزرق اللون - من القماش الذى يرتديه جنود الحراسة - يدير فى يديه مسبحة ، كان على خبرة ما بآى عمل .

تناوب إحضار ماء الشرب مع الفراش القديم . كل واحد منهما يوم . وأصبحت المدرسة نظرة ، نظيفة وأخذ وجهها رونقه وبهاه . أرضية الردهات كان يتم غسلها باستمرار . كما قمنا أيضاً بتركيب الدفايات ، بالإضافة إلى الدفايات القديمة التى توقد بالحطب . وقد دفعنا فى تركيبها ثلاثين توماناً أخذها السكرتير من الإدارة التعليمية . وقد وقعت منذ أسبوع خمس استمارات لتحصيلها . كان من الممكن لهذين الشخصين بسهولة أن يكفينا أمر هذه الدفايات ، لكن الفراش الجديد كان تفكيره كله حسابات حتى أننى سمعت أنه قال : « بس إزاي هنوفر الفلوس اللى عايزاها » بعدها أصدر السكرتير أوامره بإحضار عامل آخر للمدرسة أخذ يلف ويدور فى المدرسة طوال يومين كاملين ، كان كأنه بابانويل فى ليلة عيد الميلاد فقبل أن يدهن الدفايات بورنيش التلميع ، كان يدهن به نفسه ، رأسه ووجهه ، وأصبح وكأنه عفريت متجسد بين الأطفال ، وربما أدى هذا إلى أن يسقط عنهم خوفهم . تم تغيير وتبديل حوامل الدفايات وتغطية جدارها الداخلى

بالطين والقرميد ، وتم تركيبها مرة أخرى ، بعدها أصبح علينا أن نسعى وراء الحصول على الفحم والخطب ، ولمدة أربعة أيام متوالية كنا نرسل الفراش القديم عند الظهر إلى الإدارة التعليمية ونتظره أن يعود بالفحم .

لم يكن قد مضى أسبوع واحد على وصول الفراش الجديد حتى علا صوت المدرسين . فلم يكن يلقي بالتحية على أي منهم ، ولا يرضى بأن يذهب لإحضار طلبائهم الصغيرة . لم يكن يدع لأى منهم ثغرة ينفذ منها إليه . كان يحضر مثل الجميع فى الثامنة صباحاً بالضبط ، ورغم أميته كان يبادر بالتوقيع فى دفتر الحضور والانصراف ، حيث يرسم أمام اسمه خطأ متداخلاً معوجاً يفهم منه بالتنجيم والتخمين أنه « حسين » . عندما كان يدق جرس الظهيرة كان يسارع بالذهاب مثل الجميع ، وكذلك فى أوقات العصر . صحيح أنه كان دائماً ما يلقي علىّ بالتحية ، أما المدرسون فلا بد أن كل واحد منهم كان يرى فى نفسه شخصاً ذا أفضلية وحيثية وعلم وكيان ، وعلى أى حال لم يكن الأمر كله يستدعى أن يتوقعوا من فراش فى المدرسة أن يبادرهم بالتحية ، لكن سواء كان الأمر هكذا أم لم يكن فقد كان يعتبر نفسه على قدم المساواة مع الجميع ؛ كان لديه إصرار عجيب على التوقيع فى دفتر الحضور والانصراف ! وأسوأ من هذا كله كان كلما دخل على المدرسين أو مر عليهم يلتزمون الصمت ، هذا على الرغم من أننى منذ اليوم الأول لوصولى إلى المدرسة شاركهم فى الإنفاق من

مالى الخاص ، وتركهم أحراراً فى أن يغلقوا عليهم باب مكتبهم فى أوقات الراحة ليتحدثوا فيما يشاءون ويفعلوا ما يريدون . أما هو فكان فى أوقات الراحة بين الحصص وفى الفسحة يحضر مع المدرسين فى مكتبهم ليصب لهم الشاى ويناولهم الماء للشرب ، ثم يقف فى ركن معين من حجرة مكتبهم . وكان هذا يضايقهم فلم يكن فى استطاعتهم مع وجوده أن ينفثوا عن مصاعب التدريس ومشاكله ويظلوا طوال فترة راحتهم على هذا الحال دون أن تواتيهم الجرأة على أن يقولوا له شيئاً أو يلفتوا انتباهه إلى شىء ، كان سليط اللسان ، لا يحسب حساباً لأى منهم ، ومرة أو مرتين أرسلوه يبحث عن شىء نادر ليتخلصوا منه لكنه كان من المهارة بحيث ينجز ما أمره به على الفور ويعود إليهم من جديد حتى أصبح شوكة كبيرة فى حلقومهم ، وصل هذا الوضع إلى درجة أن ضحكات المدرسين العالية لم تعد تخرج من وراء باب مكتبهم أثناء أوقات الفسح . ولا بد أن عواصف كانت هناك خلف هذا الباب ، عشر سنين من الخبرة لا بد أنها علمتني على الأقل أنه إذا لم يستطع المدرسون أن يضحكوا خلال الوقت القصير فى الفسحة فإنهم سوف يقومون بضرب ومعاقبة التلاميذ فى الفصل وإذا لم يتخلصوا من متاعب أثقال العلم وينفضونها عن أجسامهم ورؤوسهم بتبادل النكات والطرف فسوف يغالبهم النعاس فى الفصل . لذلك كله كان لا بد من تدخلى ، وذات يوم استدعيت الفراش الجديد ، فى البداية سألته عن حاله وأحواله وعن سنين خبرته ، وعدد الأطفال لديه ، وإلى كم وصل راتبه . . . ، حتى فهمت الموضوع واستطعت أن أفسر موقفه . . .

فقد كان يحصل على راتب شهرى يزيد بقليل عن ثلثمائة تومان ، وهذا طبعى بالنسبة لرجل له أقدميته التى وصلت إلى ٢٥ سنة من الخدمة ولم يكن راتبه الذى يبلغ ثلثمائة تومان يعد شيئاً إلى جانب هذه السنين ولكن فى مدرسة يحصل أقدم مدرسيها على راتب شهرى ١٩٢ تومان ! من هنا فسدت الأمور وانقلب الحال . كان من الواضح أن المدرسين معهم الحق فى أن يعتبروه غريباً . فهو لم يحصل على دبلوم ، ولا حتى على أى شهادة ، ومهما يكن فهو ليس أكثر من فراش !! إلا أنه كان عنيداً وكان له الحق فى ذلك . حاولت أن أفهمه بالتلميح والإشارة فى البداية ثم صراحة أنه إذا كان المدرس والمعلم لا يأخذ أجره الذى يستحقه فى الدنيا لكنه يختلف عنه ، وأنه رجل متدين مدرك للأمور ولا بد أنه سمع شيئاً عن « من علمنى حرفاً صرت » وأخذت أحدثه بهذا الكلام ، حتى قطع كلامى فجأة وقال : -

- « ياسيدى . . . حضرتك بتقول إيه ! حضرتك ماتعرفش الشغل ده وما تعرفهمش همه أصلاً . النهارده عايزينى أنا أشتري لهم سجائر ، بكره بيعتونى أشتريلهم خمرة . . . أنا عارفهم كويس . حضرتك لسه جاى لنا اليومين دول ، أما أنا فبقى لى عمر بحاله مع الكتاكيت المزغبة دول . »

حقاً ما قاله . فقد أحصى أسناني بالفعل قبل الجميع ، وفهم وضعى جيداً فى هذه المدرسة . لكننى كنت أخشى أن يذهب لأبعد من

هذا ، كنت أريد أن أقصر الأمر معه ولكن كوني مدير مدرسة يقف ساكنًا أمام فراش وقح جرىء إلى هذه الدرجة ! ... حتى أنقذني من هذا الموقف هدير الشاحنة التي وصلت تحمل الفحم ، وعندما توقفت عن السير ونجا صوتها قلت :

- « إيه الكلام الفارغ ده ، إزاي مدرس محترم يصرف فلوسه فى الخمرة ؟ روح دلوقتى أهم بعثوا الفحم ... »
وعندما هم بالخروج أردفت قائلاً :

- « فى الأيام اللى جاية لما يحتاججولك ، ويطلبوا منك فلوس سلف هتبقوا أصحاب وتحبوا بعض . »

وخرجت إلى الردهة . كان باب المدرسة الحديدى الكبير قد فُتح ، ودخلت الشاحنة إلى المدرسة ، وأخذوا يفرغون حمولتها أمام المخزن فى نهاية الفناء ، قام السائق بتسليم ورقة للسكرتير فى يده ، ألقى نظرة عليها ثم أشار إلى حيث كنت واقفًا فى الردهة ، وأرسله بها إلى فوق . وضع السائق الورقة فى يدي مع التحية ، كانت إيصالا باستلام الفحم كان الإيصال الرسمى للإدارة التعليمية فى ثلاث نسخ ، أصل وصورتين وفوقها ورقة مطبوعة من ميزان « بسكول » تفيد أن الشاحنة يبلغ وزنها مع حمولتها ١٢ طنا ، لكن الإيصالات الرسمية للإدارة التعليمية لم يكتب بها شيء ، كما أن مكان كمية الفحم المسلمة إلى المدرسة بها كان خالياً .

كان خالياً في النسخ الثلاث . كان واضحاً أن المستلم هو الذى يجب أن يملأها . وهذا ما فعلته . أخذتُ الأوراق في الحجرة وكتبتُ الرقم وسجلته بقلمى على كل نسخة من الورقات الثلاث ، ووقعت عليها وسلمتها للسائق في يده ، فأخذها وذهب وقلت للسكرتير من فوق :

- « إذا كان لازم تتختم ، اختمها أنت ياسيدى . »

وذهبت إلى عملى وأخذت أفكر بشأن الفراش الجديد وذكائه الحاد ، وتمرسه في عمله ومهارته وخبرته ؛ « وإلى مدى كانت ستكون الأمور على ما يرام إذا كان لاثنين فقط من هؤلاء المدرسين ما لهذا الفراش من خبرة وتجربة ، وإذا كنا جميعاً لنا ماله من خبرة في عملنا هذا لكان هؤلاء الأطفال قد أصبحوا فلاسفة في ظرف عام واحد » حتى قُتِح الباب ودخل منه السكرتير . وكانت إيصالات الفحم في يده وقال :

- « يمكن تكون حضرتك ما فهمتش ! وبالأخص إنهم سابوا المكان فاضى حضرتك »

لم أفهم بالفعل . إذا كنت قد فهمت لما اختلف الأمر عما حدث أيضاً . على أى حال فقد خرجت من حالة الغباء هذه - فجأة - وقلت في حدة : « خير ؟ » .

- « مفيش حاجة حضرتك . . . هو ده المعتاد معاهم سيادتك . . إذا ما تفاهمناش معاهم يعطلوا لنا شغلنا حضرتك . »

، خرجت عن هدوئى ، إذ كيف يشركنى فى الصفقة بهذه الصراحة وأنا مدير المدرسة . وصحت قائلاً :

- « عجيبة ! بقى أنت دلوقتى اللى بتوريلى شغلى وتعرفهولى ؟
- يخرب بيت المدرسة على مديرها حتى لو كنت أنا ! غور ، حط الورقة فى ايديهم ويغوروا فى ستين داهية . . . يحرق أبوهم . . . »

كان صوتى قد علا مرتفعاً بهذه الكلمات للدرجة لم يبق فى المدرسة شخص واحد منهم . كنت مديراً مستقيماً ألتزم الأدب وألتمس العذر للجميع وأذهب لأوصل كل بقال أو سقى حتى عتبة الباب لأننى كنت أعلم أن أولياء الأمور فى حاجة لتعلم مثل هذه الآداب أكثر من أطفالهم - والآن يريد سكرتير المدرسة أن يعلمنى كيف أوقع على وصل استلام ١٨ طن فحم بدلاً من ٩ طن فحم استلمتها بالفعل ، وبعدها يتم إعفائى مع الإدارة التعليمية .
هاها ! . . .

لم أستطع أن أفعل شيئاً حتى الظهر سوى أننى كتبت نص استقالتى عدة مرات وفى كل مرة أمزقها . . . هكذا يرسمون الخطوة الأولى أمام قدم الإنسان .

بمجرد أن بدأ هطول الأمطار أصدرتُ أوامري بأن يبدأ إشعال الدفايات من الساعة صباحاً . وطبقاً للقواعد المعمول بها فقد كان يجب علينا أن نبدأ فى إشعالها بداية من الثامنة صباحاً كل يوم على أن يبدأ ذلك بعد بداية شهر ديسمبر بخمسة أيام . وقد بدأنا فى إشعالها بالفعل مبكراً عن هذا الموعد بعشرة أيام . كنا نأخذ الفحم والخطب أياً كان ويتم رصها فى الدفايات عصر اليوم السابق . أوراق واجبات التلاميذ المنتهية وكانت كثيرة ، كان يلزمها فقط عود ثقاب . . . كان التلاميذ يحضرون مبكراً كل يوم ، حتى فى الأيام الممطرة . وكان ذويهم يطردونهم من البيوت مع أول شعاع للشمس ، أولم يتناولوا غداءهم ظهراً . لا أعلم ماذا كان فى المدرسة حتى ينجذب إليها الأطفال بكل هذا الشوق والرغبة . حتماً كان شيئاً آخر غير التعليم والثقافة . وبالتأكيد لم يكن من أجل عيون المدرسين ودروسهم والسكرتير والمدير والرد الإجبارى على تحييتهم . حاولت كثيراً أن أحضر إلى المدرسة يوماً قبل مجيء التلاميذ لكن لم يحدث لى مرة أن استنشقت عبير المدرسة خالياً من أنفاس التلاميذ الملوثة بالعلم . أحياناً كان عملى يمتد فى أوقات الظهيرة ، أمشى بعد الظهر بساعة كاملة والمدرسة لاتزال مزدحمة وكأنه موعد ضرب الجرس ، كانوا يحضرون مبكرين دائماً . وبمجرد أن وصلوا إلى المدرسة يتجمعون حول الدفايات ، يأخذون فى

تجفيف أحذيتهم . كان بعضهم يبقى فترة الغداء فى المدرسة لا يغادرها وسرعان ما أدركت أن البقاء فى المدرسة خلال أوقات الظهيرة أمراً يتعلق بمسألة الأحذية ، فمن كان منه يلبس حذاءً فى قدمه لا يبقى فى المدرسة ، وهذه القاعدة كانت تنطبق أيضاً على المدرسين فهى توفر على الأقل ما يحتاجه تلميع الأحذية من مال . فالمطر فى هذه المنطقة تحت السفح الجبلى لم يكن يستمر ساعة أو ساعتين فقط ، والطرق والمدقات التى كانت تصل إلى المدرسة من الشارع الرئيسى المسفلت كانت كلها مدقات ترابية ، وكان سير الأطفال فيها ومجيئهم وذهابهم عليها يجعلها كأنها قطعة من طريق يسير إلى جانب نهر يملأها الغرين والطين دائماً والماء أحياناً وتكثربها المستنقعات . أما فناء المدرسة فكان أسوأ من ذلك يتوقف الجرى واللعب لتصبح المدرسة خواءً صامتاً . لا أحد يقدم على فعل مخالف . هنا أيضاً كان الأمر يتعلق بمسألة الأحذية . قبل هذا كنت قد قرأت هلاوس كثيرة حول مقومات عملية التربية والتعليم . بالمدرس أو بممحة السبورة أو بدورة مياه نظيفة أو بآلاف الأشياء الأخرى . . . أما هنا فمقومات التعليم تتركز كلها فى صورة بسيطة جداً وبدائية ، فهى ترتبط هنا بالحذاء . فالحذاء يصبح ثقيلاً فى المساء وإذا أسرع فى السير سوف يلتصق بالطين وينزع من قدمك . فضلاً عن الأيدي الحمراء كالبنجر والملابس البتلة - عند وصولهم إلى المدرسة - كنت ترى عيون أغلبهم حمراء اللون . كان من الواضح أنهم أدوا فاصلاً من البكاء فى هذا الصباح الباكر وأن

بيوتهم كان بها صراخ وزعيق وعراك . وأن آباءهم فى الغالب فلاحون ومزارعون وجميعهم حتماً ولأدون أصحاب عيال . وليس هناك مجال للحديث عن الرحمة والإنسانية . أوشكت المدرسة أن تصبح سريراً . وأصبح عدد الغائبين كل صباح عشرة أمثال الأيام السابقة ولم يكن أى مدرس يستطيع أن يبدأ فى التدريس مع الحصّة الأولى ، فالأيدي المتفخّة المتجمدة لاتعمل . وكذلك السكرتير أيضاً بعد أن قام بتكسير كل العصي . حتى مدرّسنا فى الصف الأول كان يعلم أيضاً أن التعليم والمعلومات فى مدارسنا تعتمد بشكل أساسى ويحت على التمارين . تمارين وواجبات . عشر مرات عشرون مرة . واليد المتجمدة لاتستطيع أن تعمل بالفأس والمعول فهى تصبح لزجة جداً أيضاً وتهرب من اليد التى تمسكها . قررنا أن نتدبر هذا الأمر .

كان الفراش الجديد هو الذى يصل قبلنا جميعاً . ذات يوم كان لدينا فى حجرة المكتب شبه مجلس وحتماً كان موجوداً معنا . فقد فرض نفسه تدريجياً . كان يستغل خجل المدرسين وصغر سنهم ويمارس ضغوطه عليهم . قال إنه على استعداد لأن يستحث أحد الأغنياء المجاورين للمدرسة على أن يرسل إلينا رمل لنفرشه فى الأرض شريطة أن نذهب نحن أيضاً لنطلب من المجلس المحلى أحذية وملابس للأطفال . انتفض مدرّس الصف الثالث من مكانه كمن لدغه عقرب وقال : -

- « آيه أمور الشحاته دى ، ده مش من شئون المدرسه والتهويب ناحيه المجلس اللى زى دى يجيب وجع الدماغ » .

وأخذ يتحدث بمثل هذا الكلام ، وحتماً كان سيواصل حديثه إذا كان المجلس على استعداد لأن يسمعه لكى يقرأ علينا أشياء يحفظها أيضاً عن تراجع الثورة وتقاعسها ، لكن المجلس لم يكن مستعد لذلك ، مع هذا الوضع لم تكن هناك حاجة لتدخلنى ، وقبلنا اقتراح الفراش الجديد . أما أنا وكذلك أى مدرس من المدرسين لم نكن حتى ذلك الوقت قد سمعنا أى ذكر للمجلس المحلى . وتقرر أن يقوم هو بمتابعة هذا الموضوع ويعرف المكان الذى سيجتمعون فيه الأسبوع القادم بل وحتى يطلب أن يوجهوا إلينا ما يشبه الدعوة .

بعدها بيومين وصل إلى المدرسه ثلاث شاحنات محمّلة بالرمل . أفرغنا اثنتين منها داخل فناء المدرسه والثالثة أمام باب المدرسه من الخارج ، وقام الأطفال بفرشه بأنفسهم ، بأقدامهم وبالمعاول وألواح الخشب وبأى شىء تصل أيديهم إليه . كان والد أحد التلاميذ هو الذى أرسلها . واضطررنا لأن نهتف باسمه تحية له أمام فصله . عصر نفس اليوم حضر إلى المدرسه والد هذا التلميذ بنفسه ووجه الدعوة لنا لتعرف على أعضاء المجلس المحلى فى يوم كذا الساعة كذا بالمكان الفلانى .

كان على أن أذهب أنا والسكرتير . وصحبنا معنا مدرس الصف الرابع على الرغم من خشيتى أن يظنوه هو المدير . لكنه كان تكمله للعدد ، يتحدث بحساب ، يعتبر فخر المدرسين .

كان المنزل الذى اختير لاجتماع المجلس المحلى فى تلك الليلة يشبه المدرسة تماماً فى كونه بعيداً منعزلاً فى منطقة خالية ، تنهض حوائطه الأربعة مستقيمة فى قلب الصحراء . عند وصولنا كانت الشمس قد مالت إلى الغروب وعندما دخلنا من باب حديدى كبير وجدنا أنفسنا فى حديقة مليئة بالأشجار ، وأشجار أكلها الخريف ، وعمرات مفروشة بالحصى والرمل يتوسطها بناية المنزل على طراز بسقف جمالونى . خدم عديدون عندما دخلنا من الباب تركنا فى أيديهم قبّعاتنا وأردية المطر . وأحاطت بنا سلالم كثيرة وتماثيل جصية مكللة بالغار ، وثريات المصابيح فوق رؤوسنا ، وتحت أقدامنا يسرى صوت مولد الكهرباء مكتوماً ، وكذلك فى الحوائط . حتما كانت هذه الكهرباء من مولد خاص ، وسجاجيد ومشايات نلوثها بالتعليم ونمشى عليها ، كانت كأنها وضعت فوق بعضها فى ثلاث طبقات فإذا ما اتسخت الأولى ترفع لتظهر الثانية ، عندما وصلنا إلى الطابق الثانى وجدنا باب الصالون فدخلنا كان به حاج يصلى بقفطان أبيض وجبة مفتوحة . ولما رفع من السجود رأينا له لحية بقدر قبضة . ونهض صاحب المنزل ليرحب بنا فى لهجة يزدية غليظة . فقدمت له رقيقى ، ولا بد أنه فهم بعدها من المدير . كانت المصابيح تتغامز يسريقتها مع بعضها البعض لتخفف عنا نحن القادمين من المدرسة وطأة كل هذا المتاع والأثاث . وصل الشاى ؛ خفيف جداً فى أكواب تحملها مماسك فضية مطعمة بالمينا لم أستطع أن أشرب نصفه . أشعلت سيجارتى وأخذت أتحدث مع صاحب البيت عن سجاجيده . كان تاجر سجاد . فالسجادة كلما

داستها الأقدام ودهستها تكون أهلاً للتصدير ، وتحول الحديث رغماً عنا إلى سوق التصدير حيث كان الحاج قد انتهى من صلاته . فنهض ثم رفع قفطانه أمامنا وهيأ حاله وأحواله للجلوس و« مساكم الله بالخير » وما إلى ذلك من تحيات وسلامات . وأخذ مدرس الصف الرابع يجاذبه أطراف الحديث شيئاً فشيئاً حتى اختلطاً معاً في حديث شيق . بينما كان السكرتير في حالة تشبه تلك الحالات التي تتاب الأطفال في مجالس الكبار عندما يغالبهم النعاس لا يريدون أن يضعوا أيديهم تحت رؤوسهم . وبدأ أعضاء المجلس جلستهم ، كان من الممكن إدراك درجة ومكانة كل منهم ومنصبه بناء على ما يلقاه من احترام من الآخرين . كان ذلك الحاج أميناً للصندوق . أما شخص رئيس المجلس فإني كنت أقرأ اسمه في عناوين الصحف لا أعلم كم سنة مرت على ذلك ، حيث كان ينتظر أن يعين في الوزارة ولا بد أنه يثلج قلبه الآن بموافقات أعضاء المجلس على ما يقوله وأن يسمع منهم دائماً عبارة « نعم سيدى » كما يسعده أيضاً أن يبت في أمور المياه والزبالة والكهرباء في الحى ، وحتماً يطير فرحاً الآن بوجود القائمين على المدرسة في الحى في حضرته . أخذت أفكر في أنه من الأفضل لو اقتنع جميع الوزراء بأن يفتحوا ديوان وزاراتهم على نواصى الحارات والأزقة . وصل عدد الجميع كبيراً وصغيراً طويلاً وقصيراً إلى خمسة عشر شخصاً . وقفنا جميعاً منتصبين لافتتاح الجلسة ثم جلسنا ، كنت أنا والسكرتير تماماً مثل طفلين جلسا في استكانة وهدوء ، بينما جلس مدرس الصف الرابع وسطنا مثل الخولى تماماً ، وجلس كل عضو من

أعضاء المجلس متكئاً على ثروته وماله ومنزله الصيفي . يتحدث غالبيتهم بلهجة محلية ، ويأتى بتصرفات وحركات خرقاء ، حتى أن الواحد منهم لم يكن يعرف كيف يتحكم فى يديه وقدميه ، وإذا تحدث علا صوته . يتحركون بهمجية ويختلسون النظرات إلينا . وكأن وزارة الدواب قد بعثت بثلاثة حيوانات جدد إلى حديقة الحيوان فى حيهم . كان أحدهم وهو الأكثر شباباً فيهم ويلبس نظارة طبية على عينيه يشبه قرد حاول أن يقلد الادميين فقام بلبس مثل هذه النظارة .

بدأت الجلسة أعمالها الرسمية وقام صاحب المنزل بتقديمنا لهم . وبدأت الجلسة ، الموافقة على وقائع الجلسة السابقة ، تدوين أسماء المتغيين صورة طبق الأصل لمجلس النواب ، وقد أخذوا الموضوع بجدية لدرجة كنت أنسى معها أحياناً أين أنا ، قبل أى شىء دار الحديث والحوار حول السرقة التى تعرض لها ليلة أول أمس منزل فلان الذى تغيب عن الجلسة لهذا السبب ، وأنهم مضطرون لأن يطالبوا بإنشاء نقطة شرطة أو يطالبوا على الأقل بدورية ليلية من عدة جنود ، بعدها حول مياه الآبار التى نضبت ، وعن محطة توليد الكهرباء التى كان مقرراً إنشاؤها بالجهود الذاتية ، والبئر العميقة التى يريد صاحب المنزل أن يحفرها . بعدها انتقل الحوار إلى قضية فلان الذى قام بتأجير منزله لشخص أميريكى والإيجار الذى سيصله مع توصيل المياه والكهرباء والتليفون وهو مرتاح فى سريره دون أدنى تعب أو مجهود ، وممرت موجه من الحسد بين الحاضرين ومعها استغفار الحاج و

استمر النقاش على هذا النحو ساعة كاملة، حيث ناقشوا مهام الأمور ، وترك الحاج مسبحته من يده ، أما هذا الذى وضع نظارة على عينيه فقد عاد مرة أخرى إلى حركات الأدميين ، أما أنا ومدرس الصف الرابع فقد أشعل كل منا سيجارته وكأنا نريد أن نعلن عن وجودنا أيضاً . وعندما جاء خادمهم ليجمع الأكواب كتبت شيئاً على ورقة علبة السجائر وأرسلتها لصاحب المنزل الذى تذكر وجودنا فجأة فاستسمحهم قائلاً :

- « إخوانا الأساتذة عندهم طلبات ، فأحسن إن إحنا نأجل أمورنا ومشاكلنا لبعدين ... »

وكأنه أراد أن يفهمهم أنه لا يجب أن يتحدثوا فى كل شىء فى وجودنا. فسمحوا بذلك. بدأ مدرس الصف الرابع فى الحديث قائلاً :

- « أيوه ... إحنا جينا تلبية لرغبة حضراتكم - وأيا كان الموضوع فإحنا دلوقتى فى ضيافتكم . وتصدقوا حضراتكم إنه شىء ما يسرش أبداً إن أبناء حضراتكو يكون معاهم فى المدرسة تلاميذ ما عندهم مش أحذية ولا طواقى ، ولأنا على علم بحب حضراتكم لأعمال البر والخير ، .. والشكر على شاحنات الرمل والزلط .. وكل شىء .. » .

تماماً مثل أى مدير عام يعلم لماذا أحضرناه معنا ، بعدها خرج السكرتير هو الآخر عن صمته وقال تلك الأشياء التى كان قد حفظها من قبل ... وأخذ يدعو لهم ويطلب منهم الدعاء ... وأفسد الأمر

إلى درجة أنه بقى فقط « أمن يجيب . . . » عليه ، وأوشكوا أن يلغوا أنفسهم ويضعوا أيديهم مرغمين فى جيوبهم ، حيث نهضتُ من مكانى ، وصحت فى السكرتير معنفاً أياه أن يترك أمور التسول هذه ، وأخبرتهم أن الحديث ليس عن طلبات وأمور استجداء لكن المدرسة تقع فى مكان معزول وبعيد والإدارة التعليمية لها ما يشغلها ، ودورة المياه ليس لها باب أوسقف وما إلى ذلك من باطل القول وحمدت الله أننى لم أتعصب حتى أنقذنى ذلك الذى يضع نظارة على عينيه ، فعندما كنت أوشك أن أتعصب كنت أنظر إليه . تحدثت أنا الآخر ربع ساعة كاملة وتقرر أن يحضر إلى المدرسة عصر اليوم التالى خمسة أفراد منهم ليبحثوا الأمر على الطبيعة ، وإذا كنا فى حاجة إلى شىء يخرج عن نطاق مقدرة الإدارة التعليمية فسوف يحيطون علماً به . ووجهنا لهم شكرنا وأعربنا عن سعادتنا وخرجنا .

فى ظلمة الصحراء اصطفت سبع عربات وراء بعضها البعض خلف سور المنزل ، حيث تجمع سائقوها فى إحداها ، وأخذوا فى فضح أسرار حريم قصور مخدوميهم لبعضهم البعض ، أما نحن فقد سرنا على أقدامنا حتى الطريق الرئيسى الذى يمر فيه الأتوبيس ، أعطيت مدرس الصف الرابع سيجارة أخرى حتى أبحث على ضوء الكبريت عن شىء فى وجهه . لكن شيئاً لم يكن هناك . لم يكن فى وجهه ذلك الذى كنت أبحث عنه ؛ ففى تلك الجلسة لم يكن وجهه قد فقد سمات المعلم فقط بل أنهم قد سلبوه كل ما كان يتميز به من

هية المدير العام لم يبق شيء منه على الإطلاق . هل هذا يعنى أننى كانت لى نفس حالته ؟ بل نفس فقدانه لحالته ؟ ونفس الوجه الممتلىء بالفراغ ؟

- « نعم . إذن لماذا ذهبت أصلاً ؟ وإذا كان أولاد الحمير دول من غير جزم ولا طواقى ؟ وأنا مالى أنا ؟ هل أنا الغلطان فى أنهم مش لابسين جزم ولا طواقى ؟ مالى أنا وأمور الشحاتة دى ؟ عرفت ياغبى ؟ عرفت إنك عشان تكون مدير مدرسة فلازم على الأقل تحط شخصيتك وكرامتك وتلفهم فى ورقة سوليفان وتحطها تحت برنيطتك حتى لا يدوس عليها أحد على الأقل ، أو تخطيها فى قطعة قماش خضرا وتعلقها على صدرك علشان ما يحسدوكش على الأقل ، حتى لو عايز تبقى مدرس محترم لآليه هتروح بعيد ؟ حتى لو كنت فراش بياخذ فى الشهر ٩٠ تومان ؟ فلازم تنزل فى وسخ الحوض لحد رقبتك ، وده كمان ما فيهبوش أى راحه ، كله فى خدمة الحكومة الله يلعنك . بتقول إيه ؟ . . . » كنا نقطع الطريق فوق مربعات الطوب والجبس والأسمنت . حراس الأهالى المحترمين القادمين فى المنطقة ، لا أعلم هل صدرت عنى آهة أو أننى قلت شيئا جعل الاثنين يلتفتان إلىّ ، وقال السكرتير :

- « شفت حضرتك اتصرفوا معانا إزاي ؟ ده حتى بسجادة واحدة من سجاجيده حضرتك يشتري مدرسة بحالها . »

كان يريد أن يبرر طريقته فى الاستجداء ، قلت :

- « طالما إن شغلك مع الألف بـ متقيشش نفسك بحد ،
علشان ده يجيب الحسرة . »

وقال مدرس الصف الرابع :

- « حتى لو كانوا شتمونا كنت مشيت من عندهم وأنا راضى .
لازم الواحد يكون واقعى ، يارب بس مايندموش . »

أخذنا نخرج آلام قلوبنا لفترة بعدها ، وما أن وصل الأتوبيس
وركبنا حتى كنت قد علمت أن مدرس الصف الرابع قد هجر زوجته ،
وأن والدة السكرتير قد تم تشخيص مرضها على أنه سرطان، وبعدها
تصبحوا على خير .

مضى يومان كاملان لم أذهب فيهما إلى المدرسة . لقد أصابنى
الحجل ، إذ كيف أستطيع أن أنظر فى وجه أى منهم ، فى نفس هذين
اليومين حضر إلى المدرسة الحاج نفسه ومعه ثلاثة منهم لتفقد الأمور
على الطبيعة وتسجيل كل شئ . وكان السكرتير يقول : حتى
الأطفال الذين يلبسون أحذية وطواقى تجدها ممزقة متهرئة . و ٨٠
زوج من الأحذية والملابس . وبداية من اليوم الرابع أخذنا نرسل
الفرّاش الجديد برفقة عشرة من التلاميذ كل يوم مع انتهاء الحصّة
الآخيرة ليذهبوا إلى مكتب الحاج ، وفى اليوم التالى كان عدد الأحذية
يزداد ، وكان الحياط قد حضر إلى المدرسة ليأخذ مقاسات التلاميذ ،
وتقرر أن تكون الملابس جاهزة بعد عشرة أيام ، أحسست خلال الأيام

التالية أن النساء اللائى يقمن بغسل الأواني والصحون على شاطئ
الترعة فى طريقى إلى المدرسة يرسلن إلى بتحياتهن ، وذات مرة
سمعت إحداهن تدعولى بالخير . لكن الأمر ساءنى بشكل لدرجة
أننى كنت أتحاشى النظر إلى أحذية التلاميذ وملابسهم ، روى فداء
تلك الأحذية الممزقة . . . نعم - لقد جعل الاستجداء مدرستنا تلبس
جديداً فى جديد . .

لم أكد أنتهى من متاعب بداية عملى فى المدرسة حتى دخل على
فى صبيحة أحد الأيام أحد أولياء الأمور . حيّانى وسأل عن الأحوال
وتصافحنا ، وجلس ، وضع يده فى جيبه العلوى وأخرج ست صور ،
وضعها فوق مكتبى . ست صور لامرأة عارية ، عارية تماماً ، كل
صورة بوضع مختلف ، وفى كل وضع ألف إغراء . ماذا يعنى هذا ؟
نظرت إليه نظرة حادة . كان رجلاً مهنّداً يبدو عليه أنه موظف أو
سمسار عقارات . أحياناً كنت أشاهد هذه النوعية من الصور لكنى
أذكر أننى لم أكن أرغب مطلقاً أن أدنس مخيلتى بصور تلك النساء
اللاتى يتسمن قسراً عند تصويرهن ، والتى تجدها فى جيب أى رجل
غيبى أو عين لغرض ما . كنت أعتبر أنه انتقاصاً من قدر نفسى أن
أرى هذا الجانب من الحياة الذى صور بأمر من مصور ما فى أحد بيوت
الدعارة بالمدينة ولنفس هذه الأسباب كنت دائماً أنظر بنفس هذه النظرة
إلى تلك الصور التى تعلق على المشاجب فى محلات الجزارة لكى تثير
شهيتك للحم .

أما الآن فقد جاءنى رجل مهنّدم ، ملابسه مكوية ليفرش ست
صور من نفس هذه الصور فوق مكتبى ، وأخذ يدخن سيجارته منتظراً
أن تمتلأ عينيّ بوقاحة هذه الصور . أخذتنى الدهشة ! إذ لم أتصور
مطلقاً أنه عندما تكون مديراً للمدرسة سوف تتعرض لمثل هذه المتاعب
لقد أخطأت فى حساباتى ، حتى فى ذلك اليوم الذى حضر فيه ذلك

الشرطى النحيل طويل القد إلى المدرسة ليشتكو من ابنه ، وعندما علم أننا قمنا بتكسير العصي حل حزامه وربطه حول قدمي ابنه وقام بطرحه على الأرض ، وطلب من السكرتير بإلحاح أن يضربه على باطن قدميه بالمسطرة عشر مرات ، لم تأخذني الدهشة ، لأنه كان شرطياً على أى حال ولديه الأسباب التى تدفعه لذلك . . . كان يقول :

- « آمال عشان إيه رينا خلق الشوم والعصيان والكرابيج ؟ »

فإلى هذا الحد كان يعتبر أدوات عمله من ضروريات الخلق والخلقة . ولهذا لم يكن بمستغرب عليه أن يفعل ذلك . ولكن من يكون هذا هو الآخر ، ومن أين أتى ؟ أن أرى الصور الست كلها استغرق هذا بالطبع أكثر من دقيقة . كانت كلها لامرأة واحدة . وجمال بخاطري أن آلاف النسخ بل الملايين منها توجد الآن فى جيوب رجال كثيرين فى كل مكان ، وكم سيكون أفضل لو أنى كنت أعرف هؤلاء الرجال أو أراهم ، قطع تفكيرى هذا دخان سيجارة الرجل الذى ملأ أنفى . لا يمكن أن أهرب أكثر من هذا . إذ أنه مازال يجلس أمام وجهى بكل ما لديه من وقاحة . ووجهت نظرى إليه فبدأ لى شرساً كأنه استعد لأن يضرب شخصاً ما ، وقد احمر وجهه وأخذ يبحث فى دخان سيجارته عن سند للجرأة التى يريد أن يتحدث بها ، غطيت الصور بإحدى الأوراق المليئة بالتفاهات التى كنت قد سرقتها ذلك اليوم ، ثم سألته بتلك اللهجة التى عادة ما نبدأ بها العراقي :

- « كويس ، طلباتك ؟ »

ودوى صوتى فى الحجرة ، كان من الواضح أننى إذا لم أبدأ كلامى بحسم وحزم ، فإن هذا الرجل الذى كان قد ركب حصانه سوف يدخل به الآن . فتحرّك حركة عبرت عن انكماشه وضعفه ، وأخفى جراته ووقاحته مع يده التى وضعها فى جيبيه ، وفى هدوء أكثر من حالته التى دخل بها علىّ قال :

- « أقول إيه ؟ اسأل مدرسكو بتاع الصف الخامس . »

ارتحت بهذا وبدأ هو يقول : -

- « إيه المدرسة دى ؟ تتهد علىّ اللى فيها . وا إسلاماه ! طب إزاي ولاد الناس ييجوا المدرسة ، وبأى ثقه ؟ » .

وما إلى ذلك من كلمات كان يقول الصدق . والكذب أيضاً .

وخلاصة الموضوع أن مدرس المهارات فى الصف الخامس كان قد أعطى هذه الصور لابن حضرته لكى يلصقها على قطعة من خشب الأبلكاش ويرصّع إطارها بالخرز ويحضرها معه ، وكان باقى الموضوع واضح ؛ فإما أنه أب وسواسى قلق يدس أنفه فى كل ما يفعله ابنه ، وسوف يتسبب قريباً فى فرار هذا الابن هرباً من هذه الرقابة اللصيقة أو أن ابنه من هؤلاء الأطفال المدللين الذين لا يشربون الماء حتى دون إذن من بابا وماما . لافرق فى ذلك ، على أى حال ربما يكون مدرس الصف الخامس قد أخطأ فى تقديره ولم يحتط للأمر . والآن ماذا

أفعل أنا ؟ بماذا أرد عليه ؟ هل أقول له إننى سوف أطرده هذا المدرس ؟ وهو الشيء الذى لا أستطيع أن أفعله ، فليس فى الأمر ما يدعو لذلك ، ماذا يفعل هو ؟ من الواضح أنه ليس لديه شخص فى أى بيت أو فى أى مكان من المدينة يسعده بمثل هذه الصور على الورق . ولكن لماذا إذن بهذه الطريقة ؟ أهو أحقق إلى الدرجة التى لايعرف معها حق تلاميذه ؟ ولايعرف حتى ذلك التلميذ الذى يضع فى يده مثل هذه الصور ؟ قمت واقفاً وناديت على السكرتير . فجاء بنفسه ؛ كان يقف منتظراً فى الردهة ، كعادته دائماً . كنت أنا آخر من يعلم بما يحدث فى المدرسة ، وإذا كانوا قد تمكنوا من إنهاء المشكلة وحلها (سواء إلى الأفضل أو الأسوأ) لما كنت قد علمت بها أصلاً . أما وقد وصل الأمر إلى ، فمن الواضح أنهم عجزوا عن الوصول إلى حل فيه . دخل السكرتير : آلمنى جداً حضور ولى الأمر هذا وأن يُخرج مثل هذه الصور من جيب ابنه - من المحتم أنه فعلها بنفس الوقاحة التى وضعها بها على مكتبى - وعندما أدرك أنه قد أسقط فى أيدينا نحن الاثنين ، وركب حصانه وأخذ يقول : - سوف أفعل كذا وكيت ، وسوف أغلق باب المدرسة ، وسوف استشكل الأمر أمام وزير التعليم وما إلى ذلك من فارغ الكلام . . . من المؤكد أنه لم يكن يعلم أنه إذا أغلق باب أى مدرسة يكون قد أغلق بذلك باب إدارة بأكملها . كأنه يريد أن يقطع عيش أمثاله بجهالته . ثم عاد ليتحدث عن قيم الإسلام . وعن مكانة المدرس والمعلم ومقامه ، ومن المهد إلى اللحد ، وكلام كثير من ذلك الذى تمتلأ به الأفواه . أما أنا فلم

أستطع طوال وجوده أن أجمع شتات فكرى . كان يريد أن نستدعى ابنه حتى يشهد بما حدث ويشرح الموضوع بالتفصيل ، وبذلنا أقصى ما فى وسعنا حتى أفهمناه أن ابنه يكفيه ما عاناه ، ووعدناه بأننا سوف نشوى معلمه فى الشمس ، وسوف نقطع عيشه ، بدأ السكرتير يهدىء خاطره وتبعته أنا فى ذلك ، لم يكن لدينا وسيلة لتطبيب خاطره سوى ذلك . وبعد أن ذهب تركنا نحن الاثنين مع ست صور لامرأة عارية ، غطت عورتها تلك الورقة التى سودتها بقلمى فى ذلك اليوم .

بعد أن مللت شتات تفكيرى طلبت من السكرتير ألا يتحدث مع أحد حول هذا الموضوع ، وأغلقت على هذا الموضوع برمته مع الصور درج مكتبى أسبوعاً كاملاً ، بعدها استدعيت التلميذ ، لم يكن يبدو عليه أى سمة من سمات التدليل أو أى شىء آخر ، وما زال أمامه سنوات حتى يصل إلى سن البلوغ . كان أبيض الوجه ، أقصر من طفل فى مثل سنه ، كان كتفه يرتفع عن مستوى المكتب بمقدار إصبعين فقط ، كان يبدو عليه بوضوح أنه ينتمى إلى أسرة كثيرة العيال ، فقر دم ، وسوء تغذية . وأدركت أن معلمه لم يجانبه التوفيق كثيراً فى معرفته به بمعنى أنه لم يزد الطين بلة إلى حد كبير . قلت :

- « أنت لىك إخوة وأخوات تانى ؟ »

- « ح . . . ح . . . حضرتك عندى حضرتك »

- « أنت وريت الصور لبوك بنفسك ؟ »

- « لا ... والله حضرتك - أحلف برينا .. »

- « طب ... إيه اللي حصل ؟ »

ورأيت أنه أوشك أن ينهار من الخوف ، هذا على الرغم من أن عصي السكرتير قد تم تكسيها جميعاً ، لكن خوفه كان من كونى المدير وبعيداً عن شخص السكرتير والمدرسة والعقاب . حيث كانت المدرسة كلها قد أمنت جانب السكرتير نفسه ، فوجدت نفسى مضطراً لأن أهدىء من روعه .

- « ماتخافشى بابابا - مش هعملك حاجة . الغلط من حضرة المدرس اللي إدالك الصور . وأنت ما عملتش حاجة وحشه يا حبيبي ... فهمت ؟ ... بس أنا كنت عايز أشوف إزاي الصور وقعت فى إيد باباك ؟ . »

- « أص ... أص ... أصل حضرتك . أصل .. »

كنت أعرف أنه يجب أن أساعده حتى يتكلم .. ولكن أساليب المباحث هذه كانت لاتروق لى ، وكذلك أسلوب التحقيق ، وخاصة مع طفل هرب الدم من وجهه ، ولم أشأ أن تتحول القضية لأن أحس أنا نفسى معها بأنى أقوم بتعذيب هذا الطفل ، كما أنه لا يصح أن أقول له ذلك . والسكرتير كان له عيونته بين الأطفال وكنت أعرفهم . وإذا كنت تركت له هذا الموضوع لكان قد أنهاه فى حينه . إذن يجب على أن أتحدث رغماً عنى . قلت : -

- « تعرف يا بابا ؟ إن الصور نفسها ما كانتش حاجة وحشة ،
إنت نفسك فهمت هي كانت إيه ؟ »

- « أصل حضرتك لاحضرتك ... أختي حضرتك
..... أختي كانت بتقول ... »

« - أختك ؟ أصغر منك ؟ »

- « لا ... حضرتك . أكبر . كانت بتقول حضرتك
بتقول حضرتك .. مفيش بس إحنا اتخانقنا على الصور . »

إذن . اتضححت الأمور ؛ فقد أظهر الصور لأخته التي ملأت
كراريسها وكشاكيلها بصور الفنانين . فاحتالت عليه ، أما هو لم يكن
على استعداد لأن يعطيها ولو حتى صورة واحدة منها ؛ فهل يكون
موضباً لثقة معلمه ويفعل مثل هذا الفعل القبيح ؟ ثم ماذا يقول
للمدرس بعد ذلك ؟ فاضطرت أخته لأن تفضح أمره مما دفع أبيه أن
يقدم على ما لم يفعله من قبل ويفتش حقيته ليلاً ليعثر على الصور
ويعاقبه أشد العقاب ، وانتهينا من هذا الموضوع .

بعدها استدعيت المدرس ، كان يعلم سبب استدعائه ، وكانت
حالته تنطق بأنه ليس لديه ما يقوله ، وبعد أسبوع من الإمهال مازال
في حالة تعجب من الجرأة التي واتتني على ألا أرفع يدي عن شخص
أعزل مثله ، حقيقة أن الخجل انتابني قليلاً . ولكن ما من بد من أن
نطرح القضية معاً وتناقشها بشكلٍ ما ، في البداية طمأنت خاطره بشأن

الطفل ، وأنه لم يرتكب خطأ ، ثم قلت له اجلس ، وجاملته
بسيجارة ورويت له هذه الحكاية :

فى بداية تأسيس وزارة المعارف وصل إلى الوزير ذات يوم أن
المدرس فلان على علاقة مشينة بالطفل الفلانى ، فطلبه الوزير على
الفور وأخذ يسأله عن حاله وأحواله ، ولماذا لم يتزوج بعد وبالطبع
وقع اللوم فى النهاية على قلة الإمكانيات وعدم قدرته المالية على
الزواج ، فأمر الوزير بمنحه مساعدة مالية بالقدر الفلانى حتى يستطيع
الزواج ويدعوه لحفل عرسه وانتهت القضية بهذه السهولة . ثم أردفت
قائلا : - هناك الكثير من الشباب الذى لا يستطيع الزواج الآن ، كما
أن وزراء التعليم هذه الأيام على انشغال مستمر بالأحداث الصحفية
والإذاعية وحفلات الاستقبال ومآدب التشرىف ، ومشاغلم على أى
حال أكثر مما كانت عليه فى العهود السالفة ، ولكن أبواب بيوت
العائلات مازالت مفتوحة . . . وما إلى ذلك من كلام منمق
ولم أدع له فرصة لينطق حتى ولو بكلمة واحدة ثم سلمته فى يده
الصور التى كنت قد وضعتها فى مظروف ، ووصلت جرائى إلى أعلى
درجاتها بقولى له : -

- « هيكون ضررهم أقل بكثير لو ما لصقتهمش على
أبلاكاشه » .

استغرق انتقال راتبى إلى قائمة إدارة المنطقة التعليمية ثلاثة أشهر . وكم سعدت بهذا التأخير ! لأنه فى نفس هذه الفترة قام صرّاف المنطقة التعليمية بالاستيلاء على مرتبات جميع المدرسين والفراشين والسادة المديرين ومعها راتب مدير المنطقة التعليمية نفسه ، وجميع البدلات وعلاوات الاغتراب والإعالة والزواج وهرب . رجال التعليم المتسولون الجياع خاويو الجيوب ذوو الأيدى الممدودة ، قيل أنها كانت تبلغ ٥٠ ، ٦٠ ألف تومان ، وأيقنت أن كثيراً من المنازل الواقعة فى دائرة المنطقة التعليمية قد حرمت من إفطار الصباح . ولكن المفيد فى هذا الموضوع كان الفراش الجديد فى مدرستنا ، إذ كان يملك رصيذاً كبيراً من المال وقام بإقراضهم جميعاً ، وشيئاً فشيئاً أصبح بمثابة بنك تسليف للمدرسة فمن راتبه الشهرى الذى يزيد بقليل عن ٣٠٠ تومان لم يكن ينفق منه حتى ٥٠ توماناً ؛ لا يدخن ، ولم يكن من مرتادى دور السينما ، ولم يكن ينفق خارج احتياجاته الضرورية ، بالإضافة إلى هذا كان يعمل بستانى لدى أحد الأثرياء فى المنطقة حديقة ومعدات ولوازمها وبالطبع مطبخ كبير كامل كان لا يداوم على التسبيح هكذا هباءً ، وأدى الاحترام للمال الذى يملكه لأن تسد الفجوة بينه وبين المدرسين لمدة طويلة . لم أسأل عن شيء ، لكن كان من الواضح أنه حتى لم يأخذ منهم فائدة على هذه القروض أيضاً .

وأدى ذلك أيضاً إلى أن تمر الأزمة على مدرسينا فى شىء من السهولة واليسر ، وأدركوا فى سرعة مذهلة أن فراشاً غنياً مثله يفيد بشكل أكثر بكثير عن مدير لالون له ولا رائحة ، هذا عن المدرسين ، أما أنا فكنت لأزال أحصل على راتبى من المنطقة التعليمية المركزية . ولا بد أن الآخرين أيضاً قد اعتادوا بمثل هذه الطريقة على تأخير رواتبهم ، وكأن شيئاً لم يحدث .

كان الوضع فى منتهى الهدوء . وأصبح أختنا الصراف كأنه قطعة خبز بلعها كلب ، بعدها بخمسة وعشرين يوماً ظلت الفصول تعمل كسابق عهدها ، حتى تنتهى التحقيقات ويصل الشيك مرة أخرى من وزارة المالية ، وظلت القرارات توقع ، والآلات الكاتبة فى الإدارة التعليمية مستمرة فى طقطقتها منذ الصباح حتى الظهيرة ، ودفاتر التسجيل تسود بسواد الحبر ورقة ورقة . وكنت فى أى وقت ترى فيه مدير المنطقة التعليمية ، تراه قادماً من الطريق يتصبب عرقاً ويروى ما فعله فى إدارة الخزانة العامة ، وماذا قال للوزير .

مع مرتبات الشهر التالى انتقل اسمى إلى قائمة الإدارة التعليمية ، فى هذه المدة كنت أقوم بنفسى بتوقيع استمارة استكمال العمل الخاصة بى وأذهب بها إلى المدرسة التى كنت أقوم بالتدريس فيها من قبل لكى أحصل على راتبى ، فعلى الأقل كانت هذه هى الميزة فى أن أصبح مديراً ! أن تستطيع بتوقيعك أن تقدم نفسك لتحصل على راتبك من جهاز المحاسبة والخزينة الذى سوف يستصعب القائمون عليه ذلك ؛

تنفيذاً للعدالة الإلهية . فيجب أن تكون من العاملين في الحكومة حتى تعرف قدر هذه الميزة . وربما كان هذا هو السبب الأكبر في أن المدارس لا يمكن أن تكون في أى وقت من الأوقات بلا مدير أو شخص يأمر فيها وينهى . ولكن للأسف كان صراف تلك المدرسة أيضاً ليس على دراية كافية أو خبرة بعمله ، وعندما حان له أن يدرك أن ورقة أو استمارة استكمال العمل الخاصة بى كانت بتوقيعى أنا ، كان راتبى قد انتقل من عنده ، وعلى الرغم من أن سير الأوراق في الإدارة كان بطيئاً إلا أنه كان أسرع من فهم هذا الصراف وإدراكه للموضوع .

عندما كان يحين وقت صرف المرتبات كان المدرسون ينتظمون في عملهم ، وتدار الفصول بشكل كامل ثلاثة أو أربعة أيام شهرياً حتى أسلم كل منهم استمارة استكمال عمله . وفيما عدا تلك المرة - التى كانت فى بداية استلامى للعمل - التى قررت فيها خصماً لمدرس الحساب فى الصفين الخامس والسادس ، لم يعد لى أى علاقة بالقلم الأحمر بعد ذلك وارتاح بالهم جميعاً بهذا الموضوع . لكن راتبهم كان على أى حال معلقاً بتوقيع ، وإذا كان هذا التوقيع يتم بيد مدير مثلى فمن المحتم أنه لن يتأخر أبداً ، فقد كنت إنساناً فى النهاية مثل جميع الناس ومن الممكن أن يتغير وضعى فجأة وأقع تحت طائلة واحد منهم ، لا بد أنهم كانوا يتحسبون دائماً لذلك فقد كانوا ينتظمون فى عملهم ومواعيدهم دائماً قبل موعد صرف المرتبات بيومين أو ثلاثة . عندما ذهبت إلى الإدارة التعليمية لاستلام راتبى كان المكان مزدحماً

لدرجة أننى قلت لنفسى لىتنى لم أنقل راتبى أصلاً . انتصف النهار ومازال الجميع رجالاً ونساء يتناولون برؤوسهم وأكتافهم ، تماماً مثل محلات بيع الخبز أيام الحرب . لا يصح أن تصرف نظر وتذهب إلى حال سيالك . فإمام الخزينة يصبح الاعتزاز بالنفس والإحساس بالعظمة أو أقل تأخير ذنب كبير كفارته غرامة مالية ، أليس من يعمل فى الحكومة ما هو إلا جوال مفتوح أمام الخزينة ؟ وإذا لم تذهب فيجب أن تظل مع هذا الزحام واقفاً على قدميك حتى الثانية بعد الظهر . أخذت أدخن سيجارة تارة ، وتارة أتمشى قليلاً فى انتظار أن تهدأ هذه الضجة وتارة ثالثة أرد على تحيات هذا وذاك . لقد أدرك كل هؤلاء الأكلين من موائد الحكومة أننى مدير ، ولا بد أنهم كانوا جميعاً من السذاجة بمكان لدرجة أنهم اعتقدوا أنهم ربما يصبحون يوماً ما تحت رئاستى فى المدرسة ، فهمت فى ذلك اليوم أن واحداً من كل ثلاثة من هؤلاء قد اقترض نصف راتبه سلفاً أو حصل على سلفة من قبل ، أو اشترى سجادة أو سخان للشاى بالتقسيط وعليه أقساط وكمبيالات يجب أن تخصص من راتبه ، والصراف السابق الذى سرق المرتبات تسبب فى حدوث حالة من الفوضى فى أمور الحسابات والكمبيالات ، وهاجت الدنيا . كانوا يبحثون عن الكمبيالات والإيصالات ويكيلون السباب للصراف السابق ، ويلتمسون إمهالهم هذا الشهر - كانوا جميعاً يقومون بمراجعة حساباتهم وكأنهم قد أصبحوا علماء فى المحاسبة ، وإذا ما حصل أحدهم على راتبه قبل مجيئ دوره كنت تسمع أصوات الجميع وقد ارتفعت وتعالَت . وقد

ضايقتنى مراعاتى للأدب والتزامى ذلك اليوم لدرجة أحسست معها
بمغبة تأخير راتبى ليومين أو ثلاثة . أما أسوأ ما كان فى هذا الموضوع
هو أننى وجدت راتبى أعلى راتب فى قائمة مرتبات المدرسة . كان
تماماً مثل أعظم ذنب فى سجل أعمالى ، فقد كنت أحصل على
ضعف راتب فرأشنا الجديد ، وقد تملكنى الخجل من معرفة مقدار
رواتب الآخرين لدرجة أحسست معها أننى أسرق أموالهم ، ظللت
واقفاً لمدة ساعتين كاملتين أقدم الجميع على نفسى وكأنى أكفر عن ذنبى
طوال هاتين الساعتين لم أفكر ولو لمرة واحدة فى أن : كل هؤلاء ليس
لهم حتى ولا ثلث خبرتك وأقدميتك ، ولا حتى نصف قصاصات
أوراقك التى طبقتها ولففتها ولا تعلم فى أى مصرف من مصارف
حياتك ألقيت بها ! لكنى أفكر بهذا التفلسف الآن مع نفسى . فى
ذلك اليوم كنت أحس فقط بأنه عندما يحصل الآخرون على هذا المبلغ
التافه كمرتب لهم وتكون أنت موظف مجهول فى الحكومة فلا يمكن
أن تعتبر نفسك المستول عن ذلك . ولم أستطع أن أرضى نفسى بهذا
الإحساس وعندما خلا المكان وقمت بالتوقيع عشر أو خمس عشرة
توقيعات وقعت عينا الصراف على ومع ألف اعتذار وضع فى يدي
٦٠٠ توماناً ، أموال مسروقة مال حرام !

كانت باكورة الجليد لاتزال على الأرض حيث تعرّض مدرّس الصف الرابع لحادث ، دهمته فيه سيارة . وكعادتي فى أوقات العصر لم أكن فى المدرسة . كان الوقت عند الغروب عندما جاء فراش المدرسة القديم عند باب بيتنا بخبره ، فجريت إلى ملابسى ، وخلال استعدادى للذهاب معه كنت أسمعه وهو يحكى الموضوع لزوجتى .

كعادته عصر كل يوم خرج من المدرسة ، وكان يسير مع مدرّس آخر من مدرّسى المدرسة ، حيث دهمته سيارة تحتها . كانت سيارة أحد الأمريكين ، سكن مؤخراً فى منزل بنفس المنطقة حتى يأتى معه بالمياه والكهرباء إلى الحى وحكى لى الباقى عندما خرجنا من المنزل . . . يقال إن أختنا كان يقود السيارة بنفسه ويعدها خاف وهرب . وأن الأطفال هم الذين عادوا بالخبر إلى المدرسة وقبل أن يصل الفراش وزوجته كان الأهالى ورجال الشرطة قد أركبوه وحملوه إلى المستشفى . لكن كان يبدو من الدم الذى كان على الأسفلت وأحاطوه بقطع الحجارة أن جثته فقط هى التى وصلت إلى المستشفى . عندما وصلتُ إلى الاتوبيس أدركت أنه سلحفاء لن يسعبنى فصرفت الفراش وقفزت أنا داخل تاكسى ، فى البداية ذهبت إلى مخفر الشرطة الجديد الذى كان قد تم فتحه مؤخراً بناء على طلب المجلس المحلى فى المنطقة القريبة من المدرسة ، وبعد السلام كان الشرطى المناوب فى المخفر هو نفس الشرطى الذى كان قد حضر إلى المدرسة وقام بضرب ابنه

بنفسه ، وبعد المجاملات والترحيب أطلعنى على المحضر وملف الحادث ، لكن المحضر لم يرد به أى ذكر صريح عن الشخص الذى كان يقود السيارة ؛ تقرير شرطى الدورية وتوقيعه وبصمته ورقم دفتر السجل فى مخفر الشرطة وكل شىء تمام . لكن أحداً لايعلم بالتحديد ما الذى حدث لمعلم الصف الرابع . كان الشرطى المناوب فى المخفر عليماً ببواطن الأمور إلى درجة أنه أبلغنى أنه فى مثل هذه الحالة « وطبقاً للمقررات الإدارية » يذهب أولاً إلى إدارة الشرطة ثم إلى دائرة الحوادث ثم إلى المستشفى . ولو لم يكن هذا الشرطى المناوب يعرفنى من قبل لما كان قد سمح لى بالتأكد أن أقرأ محضر الحادث بهذه الطريقة الفاحصة . أحسست أننى أصبحت مشهوراً إلى حد ما بين أهالى المنطقة وقد أوشك أن يغالبنى الضحك من هذا الإحساس ، واصلت طريقى بنفس التاكسى ؛ متعقباً «نفس خط السير الإدارى » فى الساعة الثامنة كنت أمام بوابة المستشفى . حتى لوكان سليماً ومر بهذا الخط الإدارى منذ الرابعة والنصف حتى هذا الوقت من الليل فمن المحتم أن شيئاً قد حدث له ، مثلما حدث لى الآن . فوق بوابة المستشفى كُتب « ممنوع الدخول بعد الساعة ٧ » كانت بوابة المستشفى كبيرة جداً تفوح منها رائحة باب مغسلة الموتى أو المشرحة . قرعت الباب ، ومن وراء الباب سمعت أحدهم يكرر على مسامعى نفس « الآية » التى كُتبت فوق البوابة . رأيت أنه لافائدة فى ذلك ويجب أن أستمد العون والجرأة من شىء ما . من قلرة ، من مكانة ، من هيئة ، من أى شىء ، ضخمت من صوتى وقلت : - « أنا

... كنت أريد أن أقول إننى مدير المدرسة ، ولكنى تراجعته من
فورى . فلابد أن أخينا كان سيقول : - « مدير مدرسة إيه وزفت
إيه ؟ » فمهما كان هو ليس أكثر من بواب وحارس على مثل هذه
البوابة الضخمة ، كما أنه ليس الشرطى المناوب فى مخفر الشرطة
حديث التأسيس حتى يحترم مدير المدرسة فى منطقته . وبقليل من
الرزانة والهيبة أكملت جملتى على النحو التالى :

.. محقق وزارة المعارف «

حيث علا صوت كالون الباب ، وفتح الباب قليلاً ، وكنت قد
غيرت من هيتى لتتناسب مع صوتى . وازدادت فتحة الباب ، حيانى
«أخينا» بعيونه ، وأزاح البالطو جانباً . ولم أر شيئاً آخر غيره .
دخلت وبنفس الصوت سألته : - مدرس المدرسة الذى أصيب
فى حادث ...

حتى فهم آخر سؤالى . نادى على أحدهم وأرسله ورائى :
الدور كذا غرفة كذا ... وظهرت خمس أشجار أو ست من أشجار
البلوط معدودة وسط الظلمة ، ولكن لا تفوح منها أية رائحة صمغ ،
كانت رائحة الكافور فقط هى التى تملأ الهواء ، رقيقة جداً ، من
الفناء إلى ممر ومنه إلى فناء آخر غطى الجليد نصفه ، كنت أجرى إلى
درجة أن أخينا الذى ورائى كانت أنفاسه تتلاحق خلفى . لم أدرك
أكان نحيفاً أم بديناً بمعنى أننى لم أره أصلاً ، لكن أنفاسه كانت
تتلاحق للدرجة شعرت معها باللذة لأننى أجبرت واحداً من هؤلاء

المتقلبي المزاج « دحك من هذه » لأن يجرى خلفي ، الطابق الأول ... والثاني ... والرابع ، أربع مجموعات من درج السلم ، ثم يمر مظلم تملأه رائحة خاصة والساعة فوق الحائط تشير إلى الثامنة والرابع ، صوتها يتتابع ويرد عليه صوت حذائي فوق أرضية الممر ، وكنت قد تقمصت هيئة مستنول في المباحث يذهب إلى منزل شخص متهم لضبطه وإحضاره ، كنت على استعداد لأن أصبح في أذن أول من يقابلني أن يقف أمامي ويقول لا . كنت أستمع العون من أي شيء لكي أضفي الخشونة والغلظة على شخصي إلى درجة ورد معها على خاطري ما حدث في تلك الليلة وتلك الجلسة وموضوع « أمن يجيب » وما حدث فيها من تذلل وخضوع ، الناس يبنون بيوتاً ليأجروها بالدولار ومعلم الصف الرابع في مدرستي تدهسه سيارة مستأجريهم ، وأنا أسعى في هذا الوقت من الليل وراء سوء حظ مجهول لا دخل لي فيه . مرت على خاطري تلك الأفكار خلال لحظات معدودة وقففتها منتظراً مرشدي ، أي أنني جعلتها تمر على خاطري سراً حتى وصل «أخي» تتلاحق أنفاسه ، أشار إلى باب فدفعته ودخلت . ازدادت حدة الرائحة وأصبح الظلام أشد . عنبر تملأه الأسرة وصوت حذائي وصوت خرخرة أنفاس شخص ما . حول أحد الأسرة وقف أربعة أشخاص .

عندما وصلت إلى السرير أحسست أن كل مآظاهرت به من خشونة وغلظة قد ذاب وأخذ يسيل على رأسي ووجهي .

كنتُ قد قطعت الطريق كله جرياً ، وقد انقطعت أنفاسي وقدماي ترتعدان هاهو معلم الصف الرابع في مدرستي ؛ قد تمدد متصلباً ترتفع بطنه ، وكأن هيكله الذي يشبه هيكل المدير العام قد ضغط بطوله بين فكي منجلة وبدا في عيني أقصر كثيراً مما كان عليه عندما كان واقفاً على قدميه ، كانت رأسه بوجهه خارج الملائة التي تغطيه ، وتحت الملائة وفي نفس المكان الذي يجب أن تشغله قدمه اليمنى ظهر ارتفاع ونتوء بحجم الوسادة . كان الدم قد غُسل عن وجهه لتوه وظهرت الزرقة في مواضع متفرقة منه كان في لونه يشبه تماماً مكان لطمة على وجه تلميذ . ابتسم عندما رأي - أي ابتسامه ! لعله أراد أن يقول إن المدرسة التي لا يكون مديرها موجوداً فيها وقت العصر لابد أن يحدث لها ما حدث ، لكنه لم يكن يستطيع أن يتكلم فقد كان فكّه مربوطاً بمنديل بنفس الطريقة التي يُربط بها فك الميت ، لكن الابتسامة كانت على وجهه ، ولم يكن هو كذلك فوق سرير المشرحة . ابتسامة تجمدت على وجهه بدلاً من بقع الدم ، كانت تماماً مثل مياه الحوض في برودة الشتاء الأولى ، تضطرب شيئاً فشيئاً ، ثم تتجمد في طبّات متتابعة ، ثم تتحول إلى جليد . هكذا كانت الابتسامة تضطرب على وجهه وتضطرب حتى تتحول إلى جليد وتجمد .

« بس ليه أنت تعرض نفسك لحادث زى ده ؟ » أحسبني وجهتُ إليه مثل هذا السؤال . لكنني عندما رأيت أنه لا يقوى على

الكلام ولا يستطيعه ، وبدلاً من أى رد يرسم على وجهه نفس الابتسامة الجامدة الباردة ، أخذت ألوم نفسى بدلاً منه : -

« بس ليه ؟ ليه بس تاخذ معاك هيكل المدير العام ده . . . هنا وهناك وبالطريقة دى ! وتخليهم يضربوك ؟ تخليهم يدوسوك ؟ هو أنت ما كنتش تعرف إن المدرس مالوش حق فى إنه يكون له جسم بالشكل الخلوده ؟ ليه بس تكون ملو هدومك وتملا العين كده ؟ حتى الحارة كنت بتملاها . كنت بتسد السكة ، هو أنت ماكنتش تعرف إن الشوارع والمرور فى المدينة والطرق المسفلتة كلها معمولة مخصوص عشان خاطر عيون اللى بيلقوا الدنيا وهمه داخل السيارات اللى صنع بلادهم ؟ ليه بس أنت بالذات يدوسوك ؟ » كنت أقول كل هذا بمثل هذه اللهجة العتائية الخطائية ، ولست متأكداً على الإطلاق من أننى كنت أحدث نفسى بكل هذا بصوت عالٍ ، وورد على خاطرى فجأة أن أقول لنفسى « ماتكونش أنت اللى حسدته » - وبعدها : - « غبى جاتك نيلة ! بعد ثلاثين سنة وأكثر من عمرك ، تيجى تخرف التخريفات دى ! » هكذا أخذت أعنف نفسى إلى درجة أننى كنت أريد أن أكيل السباب لأى شخص ، أن أضرب أى شخص ؛ حيث وقعت عيناي على الطيب المنوب .

« الله يخرب بيت دى بلد - من الساعة أربعة لغاية دلوقتى والدم بينزف من الراجل ده وأنتوا ماتتحر كوش ! . . . » وربت يد على كتفى وهدأت من صياحى ، انتهت فإذ به والده . بنفس هيئة المدير

العام ، بنفس الشكل ، النصف الآخر من التفاحة لكنه أكثر
سُمرّة ، وأكثر انسحاقًا بفعل الزمن وكان شعر لحيته الأبيض قد زُرِعَ
فى وجهه شعرةً ، شعرة ، لفحته حرقه الشمس . كان هو الآخر
يبتسم ، وقد أمسك بقبعته فى يده ، وكأنه لا يعرف أين يضعها . كان
معه رجلان آخران ، ثلاثهم تبدو عليهم سيماء القرويين ، فارعو
الطول ، عريضو المناكب وتعجبت ! إلى أى مدى هم موفورو
الصحة ، جميعهم ! أهذان الاثنان كانا والديه أم ابنى أخيه أم أى
شئ آخر وأخذت الأفكار تتوارد فى خاطرى حتى سمعت : -

- « مين يكون حضرته ؟ »

كان هذا ما قاله الطبيب المنوب حتى جعلنى أركب رأسى
ثانيةً : -

- « إنت تقصدنى أنا . حضرتك ؟ . . . أنا لاشئ . مجرد
حثة مدير . وده بقى المدرس بتاعى ، مرمى فى عنبر التشريح
بتاعكم . . » وفجأة صاح فى عقالى « اخرس يا ولد » فخرجت ،
وتوقفت الغصة فى حلقى . كان قلبى يود أن يقول شيئاً آخر . أن يوماً
بشئ ، بابتسامة ، بأقل رد أو نقد . . . فأنا لم أستطع حتى الآن أن
أقسم بمهارة أى طبيب . إلا أثنى كنت على يقين من أنه على دراية
بشئ ما من علم النفس على الأقل . . . فتقدم منى فى ود . ومد
يده . . . صافحته على مضض ، ثم أشار إلى زجاجة كبيرة ، علّقت
مقلوبة فوق السرير . وأخذ يشرح لى كائن حمار أن الغذاء يصل إليه

بهذه الطريقة ، وأنه قد أخذت له أشعة أيضاً ، وإذا لم تتفرّج جروحه حتى الصباح ، فسوف يأخذونه لتجيس قدمه . دخل علينا طبيبٌ آخر ، سماعة طيبة فى يده والمعطف الأبيض يفوح عطراً ، حيّانى بحركات مثلما يفعل ممثلو السينما ، وحرك صوته شيئاً فى أعماق ذاكرتى ، لكن ليس هناك ما يدعو لأن أفتش فيها . أكان تلميذاً عندى - لأعلم كم مرّ على ذلك من سنين - أخذ يعرف بنفسه : الدكتور ياله من زمن عجيب ! - « أى حنة من كيائك رمتها فى الأرض فى يوم من الأيام زى حبة الذرة ومعها زواق من زواقاتك المخزونة - جت وطلعت دلوقتى . أنت مافيكش عين ياغبى ؟ أنت مش شايف إنه مافيهوش أى علامة منك ؟ إنت مش شايف ماركة شركات إنتاج الأفلام على جبهته ؟ وكمان على تصرفاته وحركاته وخرطوم السماعة الملفوف على إيده ؟ حتماً كنت بتحلم ، كان بيتها لك . كنت بطمأن قلبك بس . طب لو كان ظنك صح ، اتكلم علشان نشوف دلوقتى بعد عشر سنين لسه فيك حاجة تانى تقدر تقدمها ؟ تفرقها ؟ اصحى بقى ؟ ما تفكرش فى إنك دلوقتى بقيت زى الجثة المدهوسة دى ؟ وشايل فوق وشك بس ريحة ابتسامة مرة ، ووقعت فى ايدين الكتاكيت بتوع امبارح دول ؟ دلوقتى إنت اللى متمد فوق السرير . عشر سنين كاملة وكل لحظة فيها يطلع واحد فوق سلالم ساعات عمرك ودقايقه وأنت لسه شايل بس فى جسمك تعب الحمل ده . . . والكتكوت المقصوص ده والكتاكيت الثانية اللى ما تعرفهمش كلهم

خرجوا من بيضة كانت فى يوم من الأيام سور محصن حوالين شبابك
انكسرت دلوقتى وفضيت تماماً ، ومبقاش من حد منهم حتى ولا ريشة
واحدة وسط هذا العدم والخراب وأخينا ده ؟ اللى حتى
ماخدش فرصته ده . وقبل ما يفرح قلبه بالشغلانة المسخرة دى ،
إدأس تحت عجل المدينة والحضارة . بقامته وفخامته دى ؟ وبراسه
ولسانه اللى كان واجهة المدرسة » أخذت يده وانتحيت به جانباً ،
وصببت فى أذنه كل ما كنت أعرفه من سىء القول ، له ولزملائه
ولمهتمه . وكأنى كنت أريد أنه أوصيه على مدرس الصف الرابع فى
مدرستى . بعدها أومات برأسى لأبيه . وهربت .

بمجرد أن خرجت من الباب واجهنى الفناء والجو الممطر ، سرت
بخطى بطيئة ، وزفرت كل ما كنت قد استنشقت من دواء وألم وحسرة
فى قطرات المطر ، حاولت ألا أكون حساساً . وبمجرد أن خرجت من
البوابة الرئيسية غالبنى التفكير : -

- « وأنت مالك أصلاً ؟ وليه جيت من أصله ؟ وإيه اللى كان
ممکن عمله له ؟ كنت عايز تشبع فضولك ؟ ولا تمثل دور الإنسانية
ولا نفسك إنك مدير يعرف واجبه ويكون لك مكانة فى قلب زميل
ليك ؟ » .

وأخيراً وصلت إلى نتيجة أن « فريسة وقعت فى ايدين القاعدين
على مكاتبهم فى المديرية والنيابة والمحكمة وإنه ما تقدرش تخلص
الفريسة دى من أيديهم ، ولا تقدر تعمل أى حاجة تانى . . » وأخذت

أوقف تاكسى لكى أركبه وأعود لمنزلى ، فكرت عندها للحظة :
« طب على الأقل ليه ماسألتش عن البلا إالى حصل له ؟ » وأردت أن
أعود أدراجى إلا أننى لم أكن أقوى على رؤية هذا الجسم الفارع المزرق
المتورم لمدرس الصف الرابع وهو ممدد فوق السرير . ربما تملكنى الخجل
أو استبد بى الخوف ؛ منه أو من ذلك الكتكوت المفصوص الذى خرج
من البيضة لتوه ، أو من أبيه ، أو من كل تلك الابتسامات التى
ارتسمت على وجوههم جميعاً . « طب ليه إنت ما تقعدش فى
المدرسة ! » .

فى تلك الليلة ظلمت مستيقظاً حتى الثانية صباحاً ، وفى الصباح
كتبت تقريراً مفصلاً بتوقيع مدير المدرسة ، وبشهادة جميع المدرسين
للإدارة التعليمية ، ومخفر الشرطة المحلى . بعدها أخذنا نتابع
الموضوع فى إدارة التأمينات ، وتقرر أن يصرف له تسعة تومانات يومياً
لتكاليف المستشفى ، بعدها بمدة ذهبت إلى المدرسة عصراً وأوقفت
الدراسة ، وأرسلت المدرسين وتلاميذ الصف السادس لزيارته فى
المستشفى وعيادته ، ومعهم باقة زهور وما إلى ذلك وأخذتُ
أتمشى بمفردى فى المدرسة لمدة ساعة . أصبح بخيالى فارغاً من القيل
والقال والدروس وأمور التعليم والتعلم فى صباح اليوم التالى ،
حضر والده إلى المدرسة وبعد التحية والسلام والسؤال عن الأحوال قال
إن إحدى يديه قد أصيبت بكسور وكذلك إحدى قدميه ، كما أصيب
بنزف محدود فى المخ وأن بعض الأشخاص جاءوا لعيادته من قبل

أخينا الأمريكى وقطعوا على أنفسهم وعداً بأنهم سوف يوظّفونه على الدرجة الرابعة بعد أن يتعافى ، وأفهمنى دون أن يتكلم أننى قد تسرعتُ فى كتابة التقرير وإرساله دون فائدة وطالما أنى قد أرسلته بالفعل فعلىّ ألا أتابعه ، وأن الطرفين قد تراضيا فيما بينهما ، وأن الأمر أبسط من هذا بكثير وما إلى ذلك من كلمات اللعنة على هذا البلد .

مع بداية عملى فى هذه المدرسة ، لم أكن أهتم بشئون التلاميذ . كنت أتخيل أن فارق السن بينى وبينهم يكفى لأن يبعدهم عنى ويبعدنى عنهم . كنت قد قرأت فيما قرأته من تفاهات أن الفارق بين عمر المدرس وعمر التلميذ لا يجب أن يكون كبيراً ، وأن الفارق بينهما يجب أن يكون الفارق بين جيلين ، ورجال الأمس ، وأبناء الغد وما إلى ذلك من أباطيل وتفاهات كانت رأسى أيضاً فى حالة انشغال دائم بعملى . كنت أغلق على باب مكتبى ، وفى دفىء مدفأة الحكومة أجعل من كل حبة قبة ، لكن هذا الأسلوب الرتيب فى العمل لم يستمر لأكثر من ثلاثة أشهر أو أربعة . تعبت . اضطررت فى النهاية لأن أولى اهتماماً أكثر للمدرسة ، وشيئاً فشيئاً أخذت أكتشف أموراً كثيرة . كان أحد هذه الأمور أن شئون التعليم والتدريس وبالعجب ! قد خلت من هؤلاء المدرسين والمعلمين المسنين المحنكين ، الذين كانوا على عهدنا ! أى رجال كانوا ! وأى شخصيات كانت لهم ! بلا اسم ولا علامة ، وأى لسان كان لهم وبأى سلوك ميزوا أنفسهم ! أما هؤلاء فيالهم من شباب أجلاف ! يالهم من نسخ ممسوخة تقلد المتفرنجين دون وعى ! فلا علم لهم بأضيئهم ، ولا شئ يدخل رؤوسهم من تلك الإمكانيات الحديثة التى وصلت أيديهم بسبعين وسيلة ، والأسوأ من هذا كله تمكن العجز منهم ورسوخ الروح الانهزامية فيهم ، فلا يرد على خاطر أحدهم مثلاً أن يمد يده لمساعدة أحد أو أن يهتموا بأمر

المدرسة وشئونها لأسبوع واحد أو يوم أوحى ساعة ، يحضرون إلى المدرسة ويرحلون عنها فى هدوء ورتابة ، تماماً مثل زوار شاه عبد العظيم . الشيء الوحيد الذى يعرفونه أن يأتوا يومياً متأخرين عن موعدهم عشر دقائق أو ربع ساعة ، وهكذا . والأسوأ من هذا كله هو ما كانوا يتسمون به من ضيق الأفق . فقد شاهدت عراقاً وخلاقاً وقع بينهم ثلاث مرات - على ماذا ؟ على مزهرية ! فقد كان لعمال البساتين فى المنطقة أبناء كثيرون فى المدرسة كل واحد منهم كان يحضر إلى المدرسة مرة كل شهر على الأقل مزهرية مطعمة أو مدفأة يد تكون نعمة كبيرة فى هذا الجليد والبرودة . قررت فى البداية أن أزين المدرسة وأجملها بهذه الأشياء . ولكن ما الفائدة ؟ فلا أحد يقوم بريها ، ولا أحد يحافظ عليها . صحيح أن التلاميذ كانوا يحضرون الورود من أجل مدرسيهم ، ولكن ماذا تفعل المدرسة إذا كانت فى حاجة لمثل هذه الورود ؟ من المحتم أن أكاديمية أفلاطون قد تحولت إلى جنة عدن منذ أن بدأت أقدام تلاميذها تعرف الطريق إليها . والأسوأ من هذا كله كان انعدام شخصية المدرسين ، وهو الشيء الذى أعجزنى وأعجزتنى معه الحيلة . لم يكن لديهم مقدرة على الاستمرار فى أى حديث أو الدخول فيه أصلاً . لم يكن لديهم أى علم أو خبر عما يحدث فى الدنيا . . . عن الثقافة ، عن الفنون . . . ولاحتى عن تغيير الأسعار أو عن أسعار اللحوم . ياللعجب لم يكن لهم أى اهتمام بأى شيء ! كنت أحس أن المدرسين أنفسهم هم الذين

سيصبحون أكثر إخفاقاً وفشلاً وتعثراً فى الفصول بدلاً من التلاميذ مع توالى الأيام ، وأن يتغيروا من سىء إلى أسوأ من أسبوع إلى الأسبوع الذى يليه . نتيجة لذلك قلت لنفسى يجب أن أهتم بالتلاميذ بشكل أكثر . لقد كانوا هم أيضاً ليس لهم علاقة إلا بالسكرتير ، كانوا وكأنهم مدينون لى بتحية مختزلة فقط . ومع هذا كله لم تكن أحوالهم تبعث على اليأس أو تشييط الهمم . كنت أراقبهم وهم يسرون فى الشارع إلى جانب المدرسة ، كنت أشاهدهم على غفلة منهم وهم على ناصية المدرسة أريد أن أتخيل أحاديثهم وكلماتهم وآلام قلوبهم وأفكارهم ، من خلال سباب ، أو توبيخ مضخم ، أو من خلال حركة متقصصة ، إلا أنهم كانوا يمرون على دون تحية ، وكنت على يقين من أن وجوههم تصاب بالاحمرار لنصف ساعة بعدها . وكان قلبى يُعْتَصِر من تلك الحالة التى أرى ملابسهم وأخذيتهم ، هكذا أصبحتُ أراقبهم ، أراقبهم وهم يأكلون ، وأراقبهم فى ذهابهم ومجيئهم . كان عدد قليل منهم هو الذى يأتى المدرسة بمفرده وحيداً . واضح أنهم كانوا ينتظرون بعضهم بعضاً فى الطريق أو يتقابلون فى بيوتهم . فلكى يقتربوا من قلعة المدرسة يجب عليهم أن يتضامنوا ويتزاملوا ويتعاونوا على ذلك . ثلاثة أو أربعة منهم فقط كانوا يأتون إلى المدرسة فى صحبة حرس خاص لكل منهم ، يتبع كل واحد منهم خادم أو خادمة تحمل عنه حقييته المدرسية . إلا أن أحدا منهم لم يكن توصله سيارة إلى المدرسة . صحيح أن سبعة أو ثمانية منهم كانوا أبناء

لآباء لديهم سيارات ، كنت أعرف هذا . لكن الطريق المؤدى إلى المدرسة كان من الممكن أن يحطم السيارة يوماً ما .

بين عشرين أو ثلاثين تلميذاً كانوا يمضون وقت الغداء فى المدرسة كان اثنان منهم فقط هم الذين يحضران معهما أرزاً بالخضار . أخبرنى بذلك فراش المدرسة القديم ، أما باقى التلاميذ فكانوا يحضرون لغدائهم لحمًا مقدداً أو جبن قريش أو عكاوى وما إلى ذلك من طعام . اثنان منهم أيضاً كانا يأتیان بخبز جاف ، ليس فى منديل أو حقيبة، كانا أخوين أحدهما فى الصف الخامس والآخر فى الثالث . عند ما كانا يأتیان إلى المدرسة صباحاً ترى جيوبهما متنفخة ، حيث اقتسما رغيفاً ، وطوى كل واحد منهما نصفه فى جيبه ، وعند الظهر يخرجان من المدرسة كأنهما من هؤلاء الذين يأكلون غداءهم فى المنزل ، حتماً كانا يبحثان عن ناحية معزولة فى الصحراء يتلعبان فيها خبزهما ليعودا بعد ذلك . كنت أنا الوحيد الذى ألاحظ خروجهما من المدرسة وأرقبهما . ولكن حتى هؤلاء التلاميذ كان كل منهم يشتري يومياً بقران أو قرانين حلوى أو خردوات من الفراش ؛ سكر نبات ، نظارة ، صور صغيرة ، قلم رصاص أو صمغ . من نفس الفراش القديم فى المدرسة الذى تمكنت من زيادة مرتبه خمس توماتات أخرى شهرياً كبذل حراسة المدرسة ، كنت قد ضمته لدى أحد أصحاب المحلات فى المنطقة لكى يأخذ منه بضاعة بالأجل ويسدد ثمنها على أقساط ، أما الآن فقد أصبح بالنسبة لصاحب المحل من الأعيان . لكنه

كان بمجرد وصولي إلى المدرسة ، أو إذا أردت الذهاب يجرى نحوي ليأخذ عني معطفي أو يعطينيه ، هذا على الرغم من أنني كنت أنبهه كل يوم لأتني لست ممن اعتادوا على ذلك ، لكنه كان يحاول أن يُظهر حسن خدمته ، طوال المدة التي قضيتها مديراً لهذه المدرسة لم أخلع معطفي أو ألبسه في غير حضوره ، ياله من عذاب كان . وكان هناك من يعد عليك لقيماتك ! كان يقف متصباً ، ينظر محققاً في عيوني فأجد نفسي مضطراً لأن أسأله عن أحواله وعن زوجته وابنه، وحتى أجلس ، وأنشر بساط أعمالى ، يأخذ في تلاوة تقريره ؛ بالأمس تعارك اثنان من المدرسين أيضاً على مزهريّة أو أن مأمور الحاكم العسكري حضر إلى المدرسة ، أو أن المفتش قال للسكّرتير كذا وكيت ، أو أن المدرسة الفلانية كان بها تفتيش ، أو أن معاون المنطقة التعليمية تم تغييره ، وما إلى ذلك من أباطيل من الواضح أن فراش المدرسة الجديد أيضاً كان له نصيب فيما يبلغني به من أخبار وموضوعات . بهذه الطريقة كان لدى يومياً ربع ساعة كاملة من الأعمال الشاقة وعند ما كنت أفكر في هذا الأمر كنت أدرك أنه من المؤكد أن غيابي في أوقات بعد الظهر له نصيبه أيضاً في هذا الموضوع . حتى جاء اليوم الذي أبلغني فيه ضمن تقاريره أن أحد تلاميذ الصف الرابع جاءه عصر أمس بقمعين من السكر وباعهما له ، وكأنه قد وضع في يدي بداية خيط ، سأله : -

- « بكام ؟ »

- « أديته تومانين حضرتك . »

- « لا ... لا ... جيت على نفسك . ماسألتهموش جابهم

منين ؟

- « هو أنا مغسل وضامن جنة ، حضرتك . »

فى بداية أمرى معه لم يكن هكذا سليط اللسان ، وفى رده الجاهز هذا كان تأثير الفراش الجديد واضحاً ، وأخذنى التفكير فى أن الجميع فى هذه المدرسة قد وعوا الدرس فيما عداى أنا والأطفال . ثم سألته : -

- « ليه ما قلتش لحضرة السكرتير ؟ »

كنت أعلم أنه هو والفراش الجديد أيضاً يعتبران السكرتير غريمهما . وكثير من الأشياء التى تخصهما خافية عليه لايدرى بها ، وكلاهما مثل باقى موظفى الإدارة التعليمية يعلمان أن كل شئون المدرسة وأمورها فى يد السكرتير ، وحتماً كانا يعتقدان أن بعض خيرات المدرسة كانت سوف تصلحهما فى حالة ما إذا كانت شئونها وأمورها منحصرة فى شخص . هكذا كان أمرهما يتردد بينى وبين السكرتير . وبينما ظل هو متردداً فى الرد على سؤالى ، انفتح الباب ، ودخل الفراش الجديد ليقول :-

- « لو كان قاله حضرتك ، كان لازم يديله نصيبه طبعاً . »

قطبت جبينى وقلت : -

- « أنت برضه تانى بتحشر نفسك فى أمور غيرك ؟ ماينفعش كده ، ياراجل ياكبير إنت حد يخش على ناس كدة ، من غير إحم ولا دستور ! »

بعدها سألتها عن اسم الولد ، وألقيت فى روعهما أن الأمر ليس مهماً إلى هذه الدرجة ، وأرسلتهما ليحضرا لى الشاى . ثم أنهيت عملى بسرعة ، وذهبت إلى حجرة مكتب السكرتير ، وسألته عن أحوال أمه ، وفهمت وأنا أقلب فى دوسيهات الأولاد وملفاتهم أن هذا الولد يعيد السنة ، وأن أباه تاجر فى السوق . ثم عدت إلى حجرتى ، وكتبت مذكرة لآبيه بأن يحضر إلى المدرسة صباح بعد غد . وحضر والده فى الموعد ، يجب أن يكون الإنسان مديراً لمدرسة حتى يدرك كيف ينصاع أولياء الأمور بكل سهولة لأقل أوامر وتوجيهات تصدر لهم من المدرسة . وتيقنت من أنه إذا أرسل أحد فى طلبهم لأمر يخص شئون التسجيل فلن ينصاعوا بهذه السرعة .

كان ولى الأمر هذا يبلغ من العمر حوالى ٤٥ عاماً ، بياقة قميص أقفلت دون رباطة عنق ، ومعطف هو للعباءة أقرب ، ويظهر عليه الخجل . قبل أن يجلس سأله : -

- هو أنت متجوز اتنين . . . حضرتك ؟ » .

كنت قد وضعت مع نفسى بعض الافتراضات فيما يتعلق بابه ، وقلت أحاول أن أثبتها معه بهذه الطريقة ، فإذا صحّت افتراضاتى فلا

ضير ، وإذا لم تصح فمن الممكن بسهولة أن أرجع عنها . لكن كان من الواضح أنه لم يتضرر كثيراً من سؤالى . فمدير المدرسة يستطيع فى النهاية أيضاً أن يسبر أغوار أى رجل أمامه حتى ولو إلى ذلك الحد الذى يفعله الحلاق أو مزين فى حمام ! من المحتم أنه اعتقد أن ابنه فعل شيئاً . طلبت له الشاى ، وقدمت له سيجارة أشعلها على الفور ، ولخشيتى من أنه لا قدر الله يعترض على سؤالى ، أو أن يقول مثلاً . . . وماذا يعنى فى ذلك . . . وما إلى ذلك من اعتراضات . . . لم أمهله وتابعت سؤالى : -

- « إنت عاذرنى طبعاً . لأن ابنك لا بد أنه قعد ستين فى صف واحد لهذه الأسباب . وإنت معايا طبعاً فى إنه لما تلميذ يجيب قمع سكر للمدرسة من بيت أبوه ، فده ليه أسبابه طبعاً . . . » كنت قد بدأت فى أن أوجه له بعض النصائح الاجتماعية ، حيث قاطع حديثى قائلاً : -

- « أحلف برأسك إنى بديله كل يوم أربع ريالات مصروف جيبه . . . حضرتك . يحرق أبوه ابن الحرام ده . »

هدأت من ثورته وطمأنته بأن الأمر لا يتعلق بالمصروف ، وأردت ألا يفقد أعصابه ، وأخذت منه وعداً ألا يفجر غضبه فى ابنه ، بعدها وجهت له نصيحتى الاجتماعية بأن ابنه حتماً لا يلقى الحنان والحب الكافى فى البيت ، وأنه لديه إحساس بالغربة وسط أهله ، ولا يعتبر أن مال أبيه هو ماله هو ، وإذا كان قد جاء اليوم بقمع من السكر إلى

المدرسة ، فسوف يبيع سجادة البيت على ناحية الشارع فى العام القادم ، وأخذت أقرأ له أمثلة عديدة من الغيب . . . وما إلى ذلك من زخرف القول حتى تصيب خجلاً أمامى ، وأخذ يفصح عن مكنونات قلبه وآلامه بشأن زوجته الأولى الخبيثة ، كيف كانت كذا وكيت ، وأن ابنها هذا يعيش معها منذ أن طلقها ، وأن لديه عدد من الأولاد من زوجته الثانية ، وهذا الجحش يجب عليه الآن أن يجرى على رزقه ويعول نفسه ، وأن زوجته الثانية لها الحق ألا يعينها أمره لأن لديها طفلين صغيرين . . ولما اتضحت الأمور وجهت له نصيحة أخرى . . . وأفقت فجأة على أنسى أقوم بالاستدلال على كلامى ونصائحى بآيات من القرآن وأحاديث من السنة . عندئذ اكتفيت بذلك .

وبعد أن شرب شايه الثانى ، وقال ما قال من وعود ، وذهب ، أخذنى التفكير فى « لم لا يقوم علماء التربية والتعليم بمعالجة الأمور بمثل هذه الطريقة ! » .

عندما وصلتُ إلى المدرسة ذات صباح كان السكرتير لم يحضر بعد ، وهذا الوضع قليلاً ما كان يحدث . من الطبيعي أن يكون جرس الصباح لم يضرب بعد ، وقد مضى على مواعده عشر دقائق ، والمدرسون في حمى النقاش في مكتبهم . فأنا نفسي عندما كنت مدرساً كنت مصاباً بنفس الداء ، ولكن بعد أن أصبحت مديراً أدركت مدى اللذة التي يجدها المدرسون في أن يتأخروا عن الدخول إلى الفصل خمس دقائق حتى ولو دقيقتين أو دقيقة واحدة ، كانوا مستمسين بهذا الأمر ، وكأنهم لم يعملوا في مهنة التدريس إلا من أجل هذه الدقيقة أو الدقيقتين من التأخير . ولهم الحق في ذلك ، فالإنسان عندما يكون مضطراً لأن يقوم بدور مهرج لا يضحك الآخرون ولا حتى يتمتع هو نفسه بذلك ، فلا شك أنه يتحرر بذلك من أى تكليف . أمرت بأن يضربوا جرس الصباح ، وأن يتوجه التلاميذ إلى فصولهم ، واثنان من الفصول لم يكن لهما مدرس ، الصف الرابع الذى كان مدرسه ملفوفاً فى الجبس فى المستشفى وبديله الذى أرسل إلينا ، لم يستطع حتى الآن أن يوفق جدولته فى مدرسته مع الحصص الخالية لدينا . والصف الثالث الذى كان مدرسه النحيل (العصاية) قد اختفى منذ شهر خوفاً من تعقب إدارة الحاكم العسكرى ، وكان يرسل بديلاً عنه إلا أنه لم يأت اليوم . أرسلت أحد تلامذة الصف

السادس إلى الصف الثالث ؛ ليقف عليهم ويملى عليهم قطعة إملاء ،
وذهبت بنفسى إلى الصف الرابع . فعندما تكون مديراً للمدرسة يجب
أن تدرب نفسك بين الحين والآخر ، حتى لا تنسى فن التدريس
وحرفيته . أخذت أتفقد واجباتهم ، ثم بدأت فى قراءة درس اللغة
الفارسية ، حيث دخل الفراش وأخبرنى أن سيدة تنتظرنى فى المكتب ،
ظننت أنها حتماً ستكون تلك السيدة التى لا عمل لها ، والتى تأتى
مرة كل أسبوع تمر فيها على المدرسة لتسأل عن حالة ابنها فى الدروس
وأداء الواجبات . امرأة ذات وجه أبيض بعيون واسعة ، حزينة ،
وشعر أسود فاحم السواد ، ووجه مستدير ، ولها قامة قصيرة ، ويبدو
أن عمرها لايزيد عن ٢٥ سنة ، أما ابنها فكان من تلامذة الصف
الثالث . أول يوم رأيتها فيه كانت تضع على رأسها منديلاً رقيقاً ،
أزرق اللون ، وترتدى قميصاً برتقالياً ، فى أسلوب مهندم ، سعدت
كثيراً بلقائى ، وخبرت بأدبى وأفضالى . ولم يكن قد وصل إلى
خبرتها بعد أن مديرى المدارس إذا لم يكونوا عابسين متجهمين فهم
على الأقل لاصبر لهم . كانت متبسطة للغاية للدرجة أنها تتحدث فى
تبسط مع مدرس أو اثنين من مدرسى المدرسة ، وكما أخبرنى
السكرتير فإنها كانت قد طلقت منذ عام ، وأن اعتيادها على الحضور
إلى المدرسة والتردد عليها يعتبر مبعثاً للمشاكل ووجع الدماغ .
فمدرسة تقع وسط الصحراء ، مليئة بالمدرسين العزاب الذين لا أحد
معهم ، وامرأة جميلة بالتاكيد لايجوز ولايصح . بعدها كنت

أنبهها إلى ذلك لكنها لم تكن تكف عن عاداتها هذه . حيث كانت تتجه بعد لقائى إلى السكرتير وحجرة المدرسين ، وتنتظر حتى يضرب الجرس ، ويتجمع المدرسون ، وتنطلق الكلمات والأحاديث والضحكات ، ثم تأخذ فى سؤال مدرس الصف الثالث عن أحوال ابنها الدراسية وواجباته المدرسية ، وبعد أن يضرب الجرس التالى تلقى التحية على الجميع وتذهب . لم تكن تتسبب فى أى نوع من المشاكل أو الإيذاء ، لكنى كنت دائماً أفكر فى أحوالها : كم هى مسكينة حتى تملأها القناعة بمجرد مدرس فى مدرسة ، وكيف تعيش حياة خالية من وجود رجل حتى تشوق إلى هذه الدرجة لأن تستنشق هواءً يتنفس فيه رجال لاحول لهم ولا قوة مثل هؤلاء المدرسين ، حالها البائس هذا كان يقلقنى كثيراً ، بعيونها كانت تبتلع أنفاس المدرسين ، كنت أرقبها فى هذا . وكأنها تاكل فى مالى ! هذا فضلاً عن أنى لم أشأ أن تطاول يدها حرمة هيبتي مع هذا الجسد الطفولى البض درن أن تعرف المرارة والحسرة طريقاً إليها ، ولم أكن أريد فى الأصل أن تكون المدرسة مكاناً لتربية شخصيات المدرسين من هذه الناحية حتماً هى نفس المرأة أثناء هبوطى درجات السلم كنت أرص الجمل وأنمقها فى ذهنى حتى تقطع رجلها عن المدرسة ، فتحت الباب فجأة وألقيت بالتحية وباللهعجب ! لم تكن هى . كانت فتاة فى الحادية والعشرين من عمرها ، ذات شفاه مكتتزة ، لفت شعرها خلف رأسها بمشقة ، وضعت كفها على فمها تحاول أن تفهم . على أى حال لم

تكن قيحة ، لكن وجهها كان ينطق بأنها مُدرسة . قلت لها إننى مدير المدرسة ، فسلمتنى قرار تعيينها فى يدى ؛ خريجة معهد إعداد المعلمين ، تم تعيينها حديثاً ، وأرسلوها إلينا لتعمل معلمة فى المدرسة ، أردت أن أقول « لعل مدير الإدارة التعليمية لا يعلم أن المكان هنا يعج بالرجال » لكنى رأيت أنه لا ضرورة لهذا ، وفكرت فى أن هذا فى حد ذاته يعد تنويعاً ، فهى على أى حال امرأة تستطيع أن تلتطف من جو المدرسة الحشن ، الذى يطغى عليه جو الصبيان والذكور تماماً . رحبت بها ، وطلبت لها الشاى الذى لم تشربه ، ولما لم يكن بيننا كلام آخر ، أخذتها إلى الصفين الثالث والرابع ، واقتربت عليها أن تقبل أياً من الفصلين تميل إليه ، ودار الحديث حول ١٨ ساعة تدريس تنتظرها ، وعدنا إلى المكتب ، سألتنى هل يوجد لدينا معلمة أخرى غيرها . قلت :

- « للأسف . الطريق إلى مدرستنا لم يمهد بعد لكعوب أحذية السيدات » .

فضحكت ضحكة أحسست معها أنها تضحك بتكلف وصعوبة . بعد ذلك أخذت تتحدث فى موضوعات شتى ، ثم قالت فى النهاية :
- « آه كنت قد سمعت أنكم تتعاملون مع المدرسين هنا بأسلوب غاية فى اللطف » .

صوتها فيه من الجاذبية ما جعلنى أفكر « خسارة أنها سوف تفسد

هذا الصوت تحت السبورة السوداء . وقلت : -

- « لكن ليس إلى الحد الذى تفسد معه أمور المدرسة وشئونها وحتماً وصلك أن زملاءك هم الذين جلسوا وقرروا بأنفسهم أن يقوموا بتدريس ١٨ ساعة فى الأسبوع . ولادخل لى فى الأمر » .

- « العفو حضرتك ... »

ولم أفهم ماذا أرادت أن تقول بعبارة « العفو حضرتك » هذه . ولكن كان من الواضح أن المشكلة لاتتعلق بساعات التدريس . فقررتُ فى الحال أن أتأكد من ذلك :

- « بالطبع أبلغوكِ أيضاً أن اثنين فقط من المدرسين لدينا هما المتزوجان ، فاحمر وجهها ولكى لاتفعل شيئاً آخر ، نهضت واقفة وأخذت قرار تعيينها من فوق المكتب ، وتأزم الأمر فرأيت أنه يجب أن أنقذها من هذا الموقف ، سألتها عن الساعة ، كان موعد ضرب الجرس ، ناديت على الفراش لكى يضرب الجرس ، بعدها قلت لها إنه من الأفضل أن تتشاور مرة أخرى مع مدير المنطقة التعليمية ، ونحن على أى حال سوف يسعدنا أن نتشرف بزمالة سيدة فاضلة مثلها وفى أمان الله .

بمجرد أن خرجت من المكتب ، انطلق صوت الجرس ، وتدافع المدرسون وكأنهم فئران أضرمت فيها النيران ، وأخذ كلٌ منهم يتابعها ببصره حتى خرجت من بوابة المدرسة الحديدية الضخمة .

صباح اليوم التالى علمنا أن السكرتير كان يرعى شئون أمه المريضة التى تقرر لها أن تلازم الفراش لعمل جلسات كهربية على المواضع المصابة بالسرطان فى جسدها . كنت قد أشفقت على حاله منذ البداية وعملت ما بوسعى ، وطلبت من واحد أو اثنين من زملائى الذين تخرجوا فى كلية الطب أن يهتموا بأمره . أما الآن وقد وجدوا لها سريراً خالياً فى المستشفى فقد تضاعف خوفها ، وإذ لم تكن على استعداد لأن تذهب إلى المستشفى ، والسكرتير يريد منى أن أتدخل رسمياً فى الموضوع ، وأن أقنع أمه بما لى من لسان طيب ولغة حانية - على حد قوله - بأن تذهب إلى المستشفى . وما إلى ذلك . . .

لم يكن هناك بد من ذلك . فعيون السكرتير كان يبدو منها أنه لم ينم طوال ليلة أمس . ومع هذا الوضع الذى سوف تضطرب فيه أمور المدرسة ، تركنا المدرسة للمدرسين وتوجهت أنا وهو فى طريقنا إليها .

باصات ، وتاكسيات ، وعربات حنطور ، وفى النهاية وصلنا منزلهم الذى لايزيد عن كونه حجرة مؤجرة فى فناء بمساحة راحة اليد ، واتساع حوضه لايزيد عن مفحص قطاة . وقد جلست أمه بعيون غائرة ، وجهها كأنه ممسوح بالفحم ! لم يكن أسمر ، لكن لونه قد مال إلى السواد لدرجة أخافتنى ، لم يكن بوجه أصلاً ، لكنه كان

كانه جرح أسود كبير انفتح فيه مكان للعينين والفم ، أخذ ابنها يتحدث ويقدمنى لها « بداية الشباب وحمل المسئولية والمستشفيات التى لم تعد كما كانت من قبل » وما إلى ذلك من زخرف القول وغروره وألقينا بعباءتها فوق رأسها وتوكلنا . . . ومرة أخرى تاكسى ثم باص ووصلنا بعد ذلك إلى المستشفى ، وظللنا حتى الظهر من حجرة إلى أخرى ، نعاين الأسيرة ورطوبة الجدران لنختار أقلها رطوبة ، وملاءة السرير الأكثر نظافة حتى تمددت على السرير ، ومرة أخرى قابلت اثنين أو ثلاثة من تلامذتى القدامى ، وأخذت فى توجيه نصائحي وتوصياتى ، وفى الواحدة بعد الظهر كنا قد انتهينا من هذا الأمر .

عندما حضرت إلى المدرسة غداة اليوم التالى كان السكرتير سعيداً كان واضح أنه قد تخلص من عبء شئ ما ، وأخبرنى أن مدرس الصف الثالث قد تم القبض عليه ، بعد أن كان قد اختفى تماماً منذ ما يزيد عن الشهر بأيام قلائل . كنا قد سلمنا استمارة استكمال العمل الخاصة به إلى زميله الذى أرسله ليحل محله بشكل غير رسمى ؛ ولم يتأثر راتبه بغيابه ، واستمر الوضع على هذا الحال حتى يصبح الخبر رسمياً ، وينشر فى الصحف ، وتعلم بذلك الإدارة التعليمية وتسحب اسمه من كشوف المرتبات ، وعندما تأكد الخبر وأصبح رسمياً ، لم يعد يستطيع إرسال بديله المناسب هذا (١) وأصبحنا مضطرين لأن نتصرف وفقاً للقواعد المعمول بها فى مثل هذه الحالة ، وكان هذا أسوأ ما فى الموضوع . فضلاً عن هذا كنت دائماً أفكر كيف سيستطيع

شخص مثله له هذه الأقدام الرقيقة ، وهذا الجسد المرتعد أن يخرج سالماً من تحت سلاسل هذه الزنازين السوداء ؟

« إذن لماذا لم تكلمه ؟ لماذا لم تفهمه أن ما يفعله هذا لاجدوى من ورائه ؟ » ولكن أنا الذى كنت مقصراً فى ذلك ؟ إنه حتى لم يصادفنى فى طريقى ولو مرة واحدة حتى أسأله عن أحواله . كان يجفل منى أصلاً ! فأنا الذى أحل المشاكل وأزلى الصعاب لهم جميعاً - حتى الفراشين - ماذا كان يفرق هو معى ؟ ظلمت على هذه الحالة ليومين أو ثلاثة أحس بالمسئولية وعدم الارتياح ، حتى قررت أن أذهب إليه وأزوره . وبعدها شغلنى الإحساس بأن المدرسة قد أصبحت خالية ، وأن الفصول لا دروس فيها فى أغلب الأوقات . فقد كان بديل مدرس الصف الرابع مازال لم يحصل على صيغة رسمية لعمله فى المدرسة . وأصبح لدينا فصل آخر لامدرس له ، ومنذ بداية العام الدراسى حتى ذلك الوقت الذى طالبنا فيه بهذا المدرس البديل الذى تقرر أن يأتى ويسد الفراغ فى الحصص التى كنا قد ألحقناها بجدول المدرسين الآخرين ، كان هذا الإحساس هو الذى دفعنى لأن أذهب مرة أخرى لأقف أمام مدير المنطقة التعليمية . وعلمت منه أن تلك الفتاة قد انتابها الخوف و « أوشكت أن تسبب لها حالة من الإحباط بنصائحك الاجتماعية هذه » هكذا حدثنى مدير المنطقة التعليمية . ورجّح أن يبحث الأمر بنفسه . وبعدها وعد بإنهاء الموضوع غداً أو بعد غد ، وأخيراً وبعد أربعة أيام من السعى هنا وهناك ، حصلت

للمدرسة على مدرسين آخرين ؛ أحدهما شاب رشتى ، أبيض الوجه ، على خلق ، ذو شعر كثيف ينسدل خلف رأسه ، وهذا وضعناه فى الصف الرابع ، والآخر كان هو أيضاً من هؤلاء الشباب الذين يصفقون شعرهم بالكريم ، ويغير رابطة عنقه كل يوم برسومات عجيبة وغريبة ، بينما كان ذلك الأخ عندنا ليس لديه سوى نفس رابطة العنق ، بطياتها الصفراء ، والهلب الضخم فى وسطها ، يشدها إلى عنقه كل يوم . أما هذا فكانه قد جلس على كتر قارون ، أو أنه يمتلك مصنعاً لصناعة رباطات العنق ، كل يوم رابطة تحوى مئات الرسومات ؛ نخلة عالية تحتها زخارف كثيرة ، تطل على شاطئ بحر يصب على صدر أخينا ، أو قلب أحمر قانى فى الوسط يعلوه سطر كتبت فوقه ملاحظات عدة ، وبمجرد أن يدخل من باب الحجرة تعبق رائحة عطره فضاء الغرفة ، يالها من مدرسة ملئت بالمتنعمين ! ليكن ما يكون .

وضعناه هو الآخر فى الصف الثالث ، لايجوز أن يكون الإناء أكثر سخونة عما بداخله ، ولما عاد للمدرسة نظامها المعتاد ، جلست وارتحت ، وأخذت أباشر أعمالى .

ذات يوم فى منتصف أحد الأيام حضر السكرتير إلى المكتب ليقول لى إنه أنعش ميزانية المدرسة . قلت :

- « مبارك أخذت كام ؟ »

- « لحد دلوقتى ولا حاجة . . . حضرتك ، المفروض ييجوا بكره

الظهر هنا حضرتك ، ويبحثوا الأمور على الطبيعة . »

وفى الغد لم أذهب إلى المدرسة أصلاً . حتماً كان يريدنى أن أكون معهم أيضاً ، وأن أباشر مساومات الحصول على ١٥ قران شهرياً بدل نظافة لكل فصل ، وأن أستغل وظيفتى كمدير للمدرسة حتى تصل إلينا ميزانية المدرسة ، وتكاليف المياه ، وباقى الأموال المتأخرة وفى هذا الغد كان ثلاثة أشخاص قد حضروا إلى المدرسة ؛ محاسب المنطقة التعليمية ومعه اثنان من مساعديه ، كانوا قد تناولوا غداءهم أيضاً على نفقة السكرتير ، وتساءلوا لماذا لا يوجد فلان ، وأخذوا يراجعون الفواتير والحسابات واليوميات ، وقد قمت بالتوقيع على تقرير كل منهم ببعض الخطوط المعوجة والمتشابكة ، وقد اتفق معهم السكرتير على أن تقام لهم مأدبة احتفالية فخمة فى موعد تالى ، وذهبوا وأفهمنى السكرتير تلميحاً أنه يجب على أن أكون موجوداً هذه المرة وعلى حد قوله فإنه مازالت هناك فرصة لأشكرهم على أنهم راعوا خاطرى ، ولم يطالبوا بحق سكوتهم ، وقنعوا بهذه المأدبة الاحتفالية فقط . الخلاصة أنه تقرر معهم أن يصرف على هذه الحفلة ثلثمائة تومان وبعض الكسور كمصروفات فى حضور مدير المدرسة ، كانت هذه هى المرة الأولى التى أجد فيها أهمية لوجودى ، هذه أيضاً ميزة أخرى فى أن تكون مديراً للمدرسة ! حقيقة أخذت شيئاً فشيئاً أدرك لغة قلوب المديرين وفكرهم . ٣٠٠ تومان من ميزانية الدولة معلقة على أن تذهب إلى الحفل الفلانى ، أولاً تذهب ، ٣٠٠ تومان يستهلك فى سبيل كل تومانين منها ١٢ قران على الأقل ثمناً للورق والحبر والفواتير والدفاتر . فالإنسان عندما يقع فى مثل هذه

المواقف عليه فقط أن يدرك ، ماذا تعنيه إدارة حكومية ، أو ماذا يعنى ديوان الوزارة .

طوال الأيام الثلاثة التى سبقت موعد الحفل لا أتذكر أصلاً ماذا فعلت . أذهبت إلى المدرسة ، أم لم أذهب ؟ وإذا كنت فعلاً قد ذهبت فلا أتذكر ماذا فعلت ، طوال هذه الأيام كنت أفكر فى أن أذهب ، أو لا أذهب ؟ أذهب أم لا ؟ ... « أخيراً - أذهب أم لا ؟ أتري أيها الأحمق ! هذا هو ما يسمى بالخطوة الأولى . دائماً نفس الموقف ، من نفس هذا المنطلق . يخلقون موقفاً ، تماماً كأنهم ينصبون شباكهم ليصطادونك فيها ، ينحتون لك شخصية وأهمية ، وينفخونك مثل بالونة ويربطونك إلى فرع شجرة سنط مليئة بالأشواك . والموقف الذى يدبرونه لك لا يدعك تفهم ما هو الموضوع . مثلما يحدث الآن تماماً ، فسكرتير مدرستك هو الذى يرعاه ، قطعاً له حق فى أن يفعل ذلك من تحت يد مدير مثلك فهو لا يريد أن يقطعوه تحت هذه العجلات ، ولا يريد أيضاً أن يظل سكرتيراً كما هو . لابد من ترقية فى النهاية ، بدل منصب ما ، منصب مدير وأعلى ثم أعلى . وأنت الآن تقف له عشرة فى طريقه . والأسوأ من هذا كله أنه يتكفل بمصاريف أمه ، ولها مصاريفها ، فراتبه الذى يبلغ ١٥٠ تومانا لا يستطيع معه حتى أن يعطى ممرضات المستشفى إكرامية أو هبة . وأنت لا تستطيع أن تأتى بسكرتير آخر غيره . أتستطيع ؟ وإذا استطعت فهل سيكون هو الآخر سلمان أم

أباذر ؟ وحتى إذا تخَّيلت أن سلمان وأباذر وضعاً مكان هؤلاء الأجلاف الذين لا تفكير لهم ، فهل سيكون هناك فرق ؟ لقد ولى ذلك الزمان الذى كان المسئولون فيه لا يأخذون من بيت المال حتى ولو زيتاً لمصاييح ييوتهم . وأنت نفسك إذا كنت لاتستطيع أن تكون أخرس وتلزم الصمت أكثر من هذا أو أن تفعل كما يفعل السكرتير ، فإما أن تتغاضى عن ذلك وتمضى فى حال سبيلك أو أن تخطو خطواتك الأولى ، تقيم الحفل ثم تأكل بعد ذلك خذ وهات . ثم الخطوة الثانية ، ثم الرابعة عشرو هه ثم مدير عام وتسقط فى الساحة وسط المعترك ! مجرد موظف يأكل فى أموال الحكومة . انتهز الفرصة ، وكل عيشك بسعر اليوم ، كن لئن العريكة طيب اللسان وتاماً مثل موظف يتعلق بالروتين؛ بالتقاعد والمعاش ، ببدل الزواج ، ببدل الاغتراب ، وبدل الضيافة يا اه ! كدت أن أختنق ، ومرة أخرى وضعت استقالتى فى جيبي ودون أن أتحدث فى شئ يتعلق بالموضوع ، لم أذهب فى يوم الحفل . بعدها رأيت أنه لايجوز ذلك على الإطلاق . قلت أذهب وأخبر مدير الإدارة التعليمية بما حدث وذهبت كان نفس المكتب لايزال داخل غرفته تماماً مثل منزل عروس تزوجت حديثاً ، ونفس منفضة السجائر اللامعة الفارغة ، لكنها كانت هذه المرة قد اعتادت على أعقاب سجائر مديري المدارس ودخانهم، سلمت عليه وسألته عن الأحوال وجلست . لكن ماذا أقول له ؟ أقول لأنى لم أرغب أن أشارك فى مأدبة الحفل فإننى أقدم استقالتى ؟ أليس فى هذا ما يشير الضحك ؟ أو أطرح الموضوع بشكل

أكثر وضوحاً وتفصيلاً ؟ وهل إذا فعلت هذا لن أصدمه هو في نفسه ؟
... رأيت أنه ليس لدى ما أقوله . أليس أسوأ من هذا كله أن أترك
مكاني بسبب ٣٠٠ تومان وأقدم استقالتي ؟ ثم ماذا يحدث ، أأروى
تلك القصة الخطيرة ، وفم الأسد ، وما إلى ذلك من أباطيل ؟ ...
» ... لا .. فوق .. مرة ثانية فوق . لما يكون لازم يكسروا رقبتك
فيكون أكرم لك أن تدوسك عربية زى مدرس فصلك الرابع أحسن من
أنك تروح تحت عجل عربية كسح ... » بعدها ضحكت من هذه
الأفكار و « السلام عليكم ، أنا جيت بس علشان أطمئن على
سيادتك » وما إلى ذلك من أكاذيب ، وألقيت باستقالتي في أقرب
مجرور للمياه في الشارع .

أما السكرتير فقد ظل أسبوعاً كاملاً كالكلب تماماً ، أخذته
العصبية ، يكثر من الصباح والضجيج ، والأمر والنهي ! وظهرت من
جديد عصي الضرب والعقاب ، والأيدى المتورمة في الصباح الباكر ،
وربما لم تواتني الجرأة على أن أتدخل . حتى أنني لم أذهب للسؤال
عن حالة أمه . أسبوع كامل كان فيه كل منا حكومة مستقلة في
المدرسة . كنت أتسحب في هدوء وأغلق على باب مكتبي ، وأمعن
النظر في مسام جلدي ، وأذرع الغرفة مجيئاً وذهاباً حتى يخبو صوت
أنين الأطفال وعويلهم ، ياله من عذاب كان ! ولكن « لماذا أصلاً ؟
لماذا كنت تذهب ؟ » أنا نفسي لم أكن أعرف . عندما كنت أفكر في
ذلك كنت أدرك : أنه في أي خرابة من خرابات حياتك كنت تذهب

إليها تتعود عليها وتسقط في هذا الاعتياد والابتذال شيئاً فشيئاً إلى درجة أنك حتى لا ترغب في أن تجار بالصراخ . من المؤكد أن ذلك الشاب النحيل - أقصد مدرس الصف الثالث في مدرستي - قد تعود هو الآخر بمثل هذه السهولة على تعذيب السجون ! فقد علمت بما يقع على رأسه من بلايا وعذاب .

طوال عشرة أيام كاملة ، وقلبي وقلوب الأطفال تخفق جميعها معاً بالخوف والوجل وينفس القدر ، حتى وصلت الأمور في النهاية . وانتهى الأمر إلى مائة وخمسين تومانا بدلاً من ٣٠٠ تومانا وكسور ، وكان السبب في هذا أيضاً أن أخطاء وقعت عند إعداد الفواتير واضطروا إلى إصلاحها وتصحيحها !

فضلاً عن تلك المرأة التي كانت تمر على المدرسة مرة كل أسبوع تعود أن يحضر إلى المدرسة اثنان أو ثلاثة من أولياء الأمور ؛ أحدهم كان هذا الشرطى الذى ربط قدمى ابنه بالحزام وأوسعة ضرباً عليهما ! كان يأتى أحياناً على فترات متباعدة ، يصحب معه طرقات حذائه أثناء سيره ، لا يخفض يده من التحية مهما أصررنا على ذلك ، فما بالك بأن يجلس . والثانى كان موظف فى البريد والبرق كان يأتى مرة كل عشرة أيام ، وهو ولى أمر نفس ذلك التلميذ الشقى الذى كان يفادى يده بكل مهارة من تحت عصا السكرتير . يجلس نصف ساعة ، تتبادل أطراف الحديث وأوجاع القلوب ، أو نتحدث عن السياسة وعن مرتبات الدرجة الخامسة الإدارية التى كان يشغلها ، وعن إيجار المنزل الذى كان يدفعه شهرياً ١٤٠ تومانا وكذلك أسطى نجار كان ابنه فى الصف الأول، وكان هو نفسه على قليل من الثقافة ويفاخر بذلك ، ويبدو أنه كان حاذقاً فى صناعته ، عندما يصافحنى يضغط يديه الكبيرتين ومعصميه الرفيعين على يدى بشدة ، واقترب منى بهذه الطريقة ، كان يتمنى أن أوكل إليه أى عمل للمدرسة حتى « يثبت عملياً مدى حبه لى » كنت أحمّن أنه حتماً تملأه السعادة عندما يتجول فى المدرسة ، ويضطر لأن يتخيل « أن كل من يتجول فى المدرسة فهو متعلم حتماً » . كما كان يأتينا أيضاً رجل من هؤلاء الذين يعملون فى

تنظيف المجارى المائية والآبار ، ذو هيكل ضخمة ، طويل القامة ، له ابن فى الصف الثالث ، يأتينا مرة كل أسبوع ، يخالط الفراشين فى قناء المدرسة لعشر دقائق أو ربع الساعة ثم يذهب دون حس أو خبر . لا طلب له ، لم يكن يطلب شيئاً منا ولا كلمة ولا حديث . فى المرة الأولى التى جاء فيها إلى المدرسة . لا أعلم لماذا اعتلى سور المدرسة الضخم هذا ، وأخذ ينهقه فوقه ، فقد رأيت على هذا الحال عند دخولى من باب المدرسة . كان هذا فى نفس تلك الأيام التى كانت تحاول فيها المدرسة أن تتجدد بالعطايا والهبات والتبرعات ، تخيلت على البعد أنه عامل إدارة الكهرباء ، جاء لينصب عمود كهرباء ، لكن عندما وصل إلى سمعى صراخه وعويله ، أسرعت الخطى إليه . وكان الأطفال قد تدافعوا للخروج من الفصول ، وأخذ السكرتير واثنان من المدرسين يتحركون بسرعة ليصلوا إلى السور ويمسكون بقدميه لإنزاله . حتماً كانوا يتخيلون أنه لا يجب ترك شخص مهما كان ليعتلى سور قلعة المدرسة ويهرب بهذه السهولة ، طوال هذا الموقف كنت أفكر كيف استطاع أن يعتلى سور بمثل هذا الارتفاع ؟ ولكن بعد أن علمت بمهنته أدركت أنه لا عجب فى ذلك .

ولكن كان عجبى أشد من ضخامة جسمه ، إذ كيف يستطيع شخص بمثل هذه الضخامة أن يدلف إلى داخل كوة بشر ، أو يتثنى داخل فتحة قناة للمياه ، فهيكله هذا لا يصلح إلا لاعتلاء الأسوار العالية . وكان سبب صياحه وصراخه هو أننا لم ندرج اسم ابنه فى

القائمة التى أرسلناها للمجلس المحلى للحصول على أحذية وملابس
وما إلى ذلك . . . عندما وصلت إليه ، رمقته بنظرة ، ثم أوعزت إلى
السكرتير والمدرسين بأن يتركوه ، ودخل الأطفال إلى فصولهم ثم قلت
له دون أن أوجه أنظارى إليه : -

- « تسلم يا أسطى . »

وأضفت وأنا أتجه ناحية مكتبى موجهاً كلامى إلى السكرتير
والمدرسين :

- « لازم انتوا ما ردتوش رد شافى على الراجل الغلبان ده ،
علشان يطلع كده فوق السور ، لأن الواحد لما يكون عنده مشكلة مع
المدرسة يروح مكتب المدير ، مش يطلع فوق السور ! . »

وسمعت خلفى صوت ارتطام ، وبمجرد أن دخلتُ من باب
المكتب دخل ورائى هو والسكرتير معاً . وبدلاً من ذلك الجسم الضخم
الذى كان فوق السور رأيت رجلاً محنيًا ، انحنى قوامه فى ثلاثة
مواضع . كان من الواضح أنه لم يسبق له حتى الآن أن تحدث مع
مدير مدرسة قلت له : اجلس . وأحسست أنه قد تكور فوق الكرسي ،
وبدلاً من أن ينطق بكلمة ، أو يرد بإجابة ، انفجر فى بكاء مفاجئ .

وباللعجب ! إهـىء . . . إهـىء وبصوتٍ عالٍ . لم أكن أظن
مطلقاً أن صوت البكاء من الممكن أن يخرج من مثل هذا الجسم
الضخم ! فأسقط فى يدى . ماذا أفعل له الآن ؟ ماذا فعلت أنا له

أصلاً حتى يبكى أمامى هكذا ؟ هل أهدى من روعه ؟ كيف . . .
ولماذا ؟ كان هذا التفكير يشغلنى حيث خرجت من الغرفة ، وناديت
الفراش الجديد ليحضره كوب ماء ، وعندما يهدأ ويعود لحالته الطبيعية
يحضره إلى . ولكن لم يصلنى عنه أى خبر بعد ذلك ، لا فى نفس
هذا اليوم ، ولا فى أى يوم آخر . كان يمر على المدرسة مرة كل
أسبوع ، يختلط بالفراشين فى فناء المدرسة أو فى الردهة لعشر دقائق
أو ربع الساعة ، ثم يذهب لحال سبيله . فى نفس ذلك اليوم رأته من
خلف زجاج مكتبى ، وهو يخرج من باب المدرسة ، يجرجر أذيال
الخيبة . وجاءنى الفراش الجديد ليقول : -

- « أيوه يا سيدى . طلبوا من ابنة خمسة تومانات ليضعوا اسمه
فى الكشف بتاع المجلس المحلى علشان صرف الأحذية والملابس . »
كان واضحاً أنه أراد أن يشى بالسكرتير مرة أخرى ، فصرفت الفراش
الجديد ، واستدعيت السكرتير . واتضح أن ذلك الرجل كان يريد أن
يضرب السكرتير ، هكذا وبلا مقدمات ، لكن السكرتير استنجد
بالمدرسين والتلاميذ ، واضطروا «أخينا» لأن يقفز فوق السور من
الخوف .

وفى شهر فبراير وذات يوم تساقط فيه الجليد ، تعرفت على
واحد آخر من أولياء الأمور ، كان الفراشان والسكرتير قد جاءنى كل
واحد منهم بعد الآخر ليخبرنى بحضوره ، وهم يسرعون الخطى فوق
درجات السلم . كان من الواضح أنهم اشتموا رائحة شىء ما ، كان

رجلاً قصيراً للغاية ، تبدو عليه مظاهر الفرنجة ، وسيم ، مهندس ، ملابسه مكوية ، كأنه لم يجلس عليها ، تحدث عن دراساته وأسفاره إلى بلاد الفرنجة ، ومن كثرة الذهب في أصابعه ، وحول معصمه كان يبدو وكأنه قد فتح محلاً للصاغة ، أما معطفه الذى كان يرتديه فقد كان أقصر من سترتى ، كان يريد أن نوافق على نقل ابنه من مدرسة أخرى إلى مدرستنا وفي هذا الوقت من السنة . كان ابنه من أولئك الأطفال الذين يأكلون المربى ويشربون اللبن فى إفطارهم مرغمين ، أصفر الوجه ، ذا عيون لا تركيز فيها ، كان فى الصف الثانى ولا يزال معه مادتان رسب فيهما من الفصل الدراسى الأول من تلك المواد الأربعة التى كان يدرسها تلاميذ الصف الثانى فى الفصل الدراسى الأول . قال إن لديه فى حديقة فيلته الصيفية التى تقع بالقرب من المدرسة بستانى له ابن يدرس فى مدرستنا ، متقدم فى دراسته و « واضح أن التلاميذ فى هذه المدرسة يحرزون تقدماً فى دروسهم تحت ظل مدير جيد ، وأن هذه المدرسة تختلف عن المدارس الأخرى فرق ما بين السماء والأرض » وما إلى ذلك من زخرف القول ، وأنه حضر هو وأسرته ليقيموا فى فيلتهم الصيفية فى هذا البرد والجليد من أجل هذا الطفل . أخذت أفكر فى أن « أهالى المنطقة المحترمين قد تفتحت عقولهم » بعدها طمأنته بأنه لا داعى لكل هذه المجاملات ، وأن المدرسة تفتخر بأن تجمع بين تلاميذها أبناء الفلاحين مع أبناء أصحاب الأرض أيضاً ، وأحسست أنه لم يرتح لعبارتى الأخيرة هذه ، ووقفت

وناديت السكرتير ، وسلمت يده ويد ابنه ليد السكرتير وقلت له : فى
أمان الله بعدها بنصف ساعة عاد السكرتير ليقول لى : إن
«أخينا» قام بتأجير منزل فى المدينة لمدرسة ثانوية بمبلغ ٣٢٠٠ توماناً
شهرياً ، وأنه طلب بإلحاح أن يذهب مدرس خصوصى لابنه فى المنزل
حتى أنه لم يتورع عن أن يطلب المدير نفسه ليتقبل تحمل مسئولية ابنه
. . . . وما إلى ذلك من عفن الفكر والقول . وبهذا الكم من هذه
الأخبار والأقاويل التى نقلها عنه فراشنا الجديد ، أحسست أن لعاب
السكرتير قد سال ، فقلت له : إنه حتماً يريد أن يتأكد أن ابنه سوف
يتم قبوله ، وألقيت فى روعه أنه من الأفضل أن يذهب هو ، وأن
يكون هذا الأمر بعيداً عن سمع المدرسين ، حتى لا نسمع اعتراضاتهم ،
ولا نحتاج فى آخر السنة لأن نضرب أحماساً فى أسداس لكى ينجح
هذا التلميذ . وفى عصر نفس هذا اليوم ذهب السكرتير إليه واتفق
معه على أن يعطى لابنه درساً عصر كل يوم بـ ١٥٠ توماناً شهرياً ،
وأصبح من المؤكد والمسلم به أن المدرسة لن تتعطل أبداً بعد ذلك فى
أوقات العصر .

دالت الدنيا على هوى السكرتير . أصبح يحصل على دخل
إضافى يوازى تماماً راتبه الحكومى ، وهذا من زبون واحد فقط .
صباح كل يوم كانت عيونه تشرق بنفس البريق الذى أظن أنه كان
انعكاساً لجميع أنواع الزينة والرياش والأثاث فى منزل أخينا هذا .
أيضاً تحسنت حالة أمه ؛ فقد سمحوا لها بالخروج من المستشفى .

كذلك فكر هو فى الزواج ، وقال : إن أمه بمجرد خروجها من المستشفى أخذت تبحث له عن عروس هنا وهناك ، أصبح وكأنه بدأ فى تشغيل عقله من جديد وإعمال فكره ، كل يوم كان لديه فكرة جديدة ، لنفسه أو للمدرسة ، أو حتى لى أنا شخصياً . وذات يوم جاءنى ليقول : لماذا لا يكون لدينا مجلس آباء ؟ جلس وحسبها فوجد أن خمسين أو ستين من أولياء الأمور من الأغنياء من عينة أئنا هذا الذى يعطى لابنه درساً خصوصياً ، كما أنه كان قد حصل منهم على وعود صريحة . فنبهته لأن يتحرز لأقاويل الإداريين وحسد زملائه ، وأن يفعل بعد ذلك ما يحلو له . أعطانى كارت الدعوة وكتبته بكل فخامة وبما يتناسب من ألقاب ، وأخذ هو إلى المنطقة التعليمية ، فكتبوه على الآلة الكاتبة ، وأرسلها إلى أولياء الأمور عن طريق التلاميذ أنفسهم .

بدأ الاجتماع رسمياً بحضور عشرين ونيف من أولياء الأمور من مجموع ٧٠ دعوة وجهت لحضور هذا الاجتماع ، لذلك تملكته حالة من الضيق الشديد ، وأخذ يقول « أهذه الدرجة نحن شعب يتسم بالإهمال ، ولا يفكر بجدية » فطمأنته بأن الدعوة حتماً كانت تفوح منها رائحة التبرع .

كان الجميل فى هذا الأمر أن شرطى النقطة قد حضر هذا الاجتماع ، كان يدق أقدامه للجميع ، وهو واقف إلى جانب الباب ليرفع مع كل دقة يده بالتحية العسكرية ، وجلس المدرسون إلى جانب

بعضهم بعضاً ، وأخذوا يتحدثون فى لفظ مسموع ، اكتملت أبهة المجلس ، حيث كان السكرتير قد جهز الشاى والحلوى واستأجر مصباحاً غازى ، ووضع على كتفيه معطف المطر وامتلات القاعة لأول مرة فى عمرها بأصوات الحضور ؛ أصوات مختلفة وأوامر بالذهاب والمجيئ . اخترنا لرئاسة المجلس ضابطاً برتبة عقيد ، واخترنا تلك المرأة التى كانت تحضر إلى المدرسة مرة كل أسبوع لتكون نائباً للرئيس ، من المحتم أن سيادة العقيد قد سعد قلبه بذلك ، ونزولاً على رغبة السيد العقيد وإصراره تم اختيار امرأة مسنة إلى حد ما لتكون أميناً للصندوق ، واختير السكرتير ليكون أمين سر المجلس ، واختير بعض منهم ليكونوا أعضاء المجلس ، أو أصحاب مناصب أخرى فيه . ويا له من عالم عندما تكون مجرد مدير لمدرسة وتجلس على طرف الساحة لتوزع المناصب ! بأى قلب تلعب وبأى يد ! سعد الجميع بهذا الوضع أياً سعادة ، لقد نحيت نفسى جانباً ، كان يكفينى ما على كاهلى من أعباء فى إدارة المدرسة . أما أخينا هذا الذى كان السكرتير يعطى لابنه درساً خصوصياً فهو لم يحضر أصلاً ، إلا أنه أرسل مظروفاً مغلقاً باسم المدير ، فتحناه أثناء انعقاد المجلس . اعتذار عن أنه لم يستطع « أن ينال من فيوضات مجلسنا » ومعه فى الظرف تبرع « بسيط » ١٥٠ تومانا « الشراكة الأولى » ، وضعت المبلغ فوق منضدة أمينة الصندوق حتى تسجله وتحفظه ، وأخذت نائبة الرئيس الوسيمة ، المهندمة ، المتعطرة فى تقديم الحلوى للحضور ، والمدرسون تحمر وجوههم مع كل قطعة يلتقطونها ، وأخذ الفراشان يقدمان

للحضور أكواب الشاي . خلال هذه المعمة وأثناءها لم يكن أحد يفكر فى مدير المدرسة . كنت أحس وقتها أننى أصبحت أفكر فى عواقب الأمور وأحسب للأمور حسابها ، وكنت مسروراً لأننى اكتفيت بالجلوس خارج الساحة ، ونحيت نفسى جانباً ، كنت غارقاً فى هذا التفكير ، حتى رأيت فجأة أنه قد تجمع فوق المنضدة ٣٠٠ أو ٤٠٠ توماناً نقداً و ٨٠٠ توماناً أخرى بإصالات أوشيكات لم يكن مع تلك المرأة التى أصبحت أمينة للصندوق حقيبة تحمل فيها هذه الأموال ، فاضطر الحاضرون للموافقة على أن تبقى هذه الأموال فى عهدة السكرتير و « لافرق بيننا وبينك وعبارات الثقة والاطمئنان » وتم كتابة محضر الجلسة ، وتوالت التوقعيات فى آخره ، ووقعت أنا على توقعيات الجميع ، وانتهى المجلس فى خير وسلامة .

وفهمت فى اليوم التالى أن السكرتير من سعادته قام فى نفس الليلة بالاحتفال بالمدرسين .

بعدها كان أول عمل قمت به أننى أرسلت محضر جلسة تلك الليلة إلى الإدارة التعليمية ، والإدارة العامة لشئون العاملين « والإدارة العامة للشئون الاجتماعية فى الوزارة » ، ولأماكن أخرى عديدة ، تماماً مثلما يفعل أى مدير مدرسة ملتزم . وفيما بعد استدعينا ذلك الأسطى النجار وطلبنا منه أن يقوم بعمل أبواب لدورات المياه ، وبصعوبة أعطاه السكرتير الأموال اللازمة لذلك . بعدها قمنا بتشجير الممرات المحيطة بالمدرسة ، وغيرنا شبكة كرة الطائرة ، واشترينا كرات

جديدة ، وتوالت التمارين عصر كل يوم ؛ فى استعداد لخوض مباريات مع المدارس الأخرى ، خلال المعمة بدأ يظهر مفتش التربية الرياضية والبدنية أيضاً ، يوم مرور على المدرسة ، وروح وتعالى ليحدث جلبة وضجيجاً وزحاماً لا قبل لى بالحديث عنه .

وفى صبيحة أحد الأيام ، سمعت بمجرد وصولى إلى المدرسة أصواتاً تأتي من القاعة ؛ طراق ، طيق ، طراق ، صوت قطع حديدية ومعها أصوات أنفاس الأطفال المتلاحقة ، نعم كان صوت بارات الحديد فقد ذهب السكرتير من تلقاء نفسه ودفع ٢٠٠ ، ٣٠٠ تومان واشترى الحديد وأخذ الأطفال النحاف ، بعظامهم البارزة ينحنون برقابهم تحت ثقل تلك الأوزان الحديدية ، لتشتعل الوجوه بحمرة الدم ويسيل العرق ، وطيق ، طراق ، ماذا أقول ؟ هل أكيل له السباب لأنه فعل شيئاً دون إذن منى ؟ أأست أنا الذى فعلت هذا ؟ أليس هذا من بيت المال ؟ هدأت من خاطرى . فى البداية كانت مسألة الأحذية والملابس . وهاهى مسألة مجلس الأباء ! ألم تكن أنت من البداية بمنأى عن معرفة ماذا يدفع وماذا يأخذ ؟ لقد شاهدت فقط المبلغ الذى أعطاه للنجار . لكنى فى الحقيقة كنت أريح نفسى . فأولياء الأمور أنفسهم كانوا على علم ؛ لقد دفعوا أموالاً وحتماً كانوا على علم بالظروف التى يعيشها المدرسون . المهم فى ذلك أن القاعة الرياضية فى المدرسة بدأت تأخذ رونقها وتزاول نشاطها ، وأصبح الأطفال لديهم كرة على الأقل يجرون وراءها ، وبارات أثقال يعرقون تحت وطأة

ثقلها ، ليسحبوا أنفاساً عميقة حتى ينمو قفصهم الصدرى ، ليستطيعوا أن يهضموا خبزهم وجبنهم أو طعامهم المطبوخ بشكلٍ أفضل ، كان السكرتير أيضاً فى حالة رضا والمدرسون كذلك ، ولأنه لم يكن هناك أى أثر للحسد ، ولم يحدث أن صدرت كلمة أو أقاويل بهذا الشأن فما كان على إلا أن أوصى السكرتير بأن يضع الفراشين فى فكره أيضاً .

رويداً . . . رويداً أخذنا نعد أنفسنا لامتحانات الفصل الدراسى الثانى . لم يكن لى أى تدخل فى امتحانات الفصل الدراسى الأول ؛ لأننى كنت فى بداية عملى بالمدرسة ، وكنت أخشى أن تتفاقم الأمور ، أما الآن فقد أصبح الوضع يحتاج لأن أقوم برقابتى الفعلية ، وأرى كيف يجعلون الأطفال يُخرجون عرقهم ؟ هذا بالإضافة إلى أننا يجب أن نسلم للتلاميذ شهاداتهم مع عطلة أيام العيد ، فلكى يدخلوا إلى السنة الجديدة فهم يحتاجون حتماً إلى شهادة السنة السابقة ، أو على الأقل لشهادة الفصل الدراسى الثانى من عامهم الدراسى الذى يطول لثلاثة فصول دراسية . كان هذا حيث استدعيت المدرسين ذات يوم فى أواخر شهر فبراير وأثناء الجلسة التى عقدناها رويت لهم دون مقدمات حكاية عن أحد زملائى السابقين ؛ فقد كان كلما اضطر لأن يمنح الدرجة النهائية فى تصحيحه يصاب بالحمى ليومين بعدها ، كان مدرساً للتاريخ ، يقوم بالتدريس فى الصفوف من الأول إلى الثالث الثانوى ، شاباً تخرج فى المعهد العالى للمعلمين ، لكن ذلك كله لم يكن ليغير شيئاً فى حالته وكنا إذا رأيناه فى صبيحة أحد الأيام وحالته ليست على ما يرام ، كنا نفهم أنه اضطر حتماً لأن يعطى الدرجة النهائية فى تصحيحه بالأمس . وطبعاً ضحك المدرسون . وتشجعت مضطراً ورويت حكاية ذلك الشيخ الذى كان يعلمنا فى طفولتنا العلوم

الشرعية ، كان يكتب نمر التلاميذ من تحت عباءته ، ويده ترتعش تحت العبء إلى درجة تتحرك معها هذه العبءة ، يستغرق فى هذا العمل عشر دقائق كاملة حتى ينهيه . ماذا كان يعطى ؟ أفضل التلاميذ وأحسنهم كان يأخذ ١٢ ! بالضبط كأنه يلد الدرجة . وطبعاً ضحكوا على هذه أيضاً ، حيث تنهت هذه المرة فتركت المزاح جانباً ، وأشرت عليهم أنه من الأفضل أن تتشاور فى مسألة وضع أسئلة الامتحانات وأنا مستعد لأى خدمة « وما إلى ذلك من عبارات التشجيع ، بعدها تبادلنا وجهات النظر حول تلاميذ الصف السادس ، وحول العدد الذى يمكننا أن نقدمه منهم إلى الامتحان النهائى ، وماذا نفعل لكى تقل نسبة الرسوب ، وما إلى ذلك من أمور أخرى . . . وبدأت الامتحانات مع بداية السبت التالى ، الذى كان أول سبت من شهر مارس .

كنا نراجع الأسئلة بثلاثة مراجعين ، أنا ومدرس كل صف والسكرتير ؛ حتى لا يحدث لا قدر الله أى ظلم أو إهمال ، وبعدها نضرب الجرس ، ويتجه الجميع فى طابور إلى القاعة ؛ تلك القاعة التى كُتب على بابها منذ أن أصبح لدينا بارات رفع الأثقال « قاعة التربية البدنية » حيث كثرت على حوائطها صور غلاظ الرقاب من أبطال رفع الأثقال ، وقد وُضعت فى ركن منها منضدتان جمعت عليهما أعمال التلاميذ اليدوية ، وعلى الأرض عند قوائم المنضدتين ألقى أوزان الحديد الثقيلة كأنها خرّيت التصق بالأرضية ، أما أعمال

التلاميذ اليدوية فكانت تتنوع بين صناديق صغيرة من الورق المقوى كُسيت بورق ملون ، ومناضد وكراسى خشبية صغيرة لا تناسب صغرها حتى لدمى العرائس الصغيرة ، وبراويز من خشب الأبلকাশ مطعمة ، ونموذج صغير لبرج إيفل لا يزيد ارتفاعه عن شبرين ونصف وقمته تشبه قمة مأذنة مسجد الشاه ، وخريطة مجسمة لإيران حُفرت عليها أماكن المدن بالثقاب . . . ما أكثر أسلحة منشار الأركيت التي استهلكت لصنع هذه الخردة ! وجرحت من جرائها الأيدي مرات عديدة ، وما أكثر الأموال التي خرجت في سبيل ذلك من جيوب الآباء ، وما سبقها من عراق في البيوت لم كل هذا ؟ لكى يحصل التلاميذ على درجات أكثر في الأعمال اليدوية والمهارات . أيامنا هذه لم يعد فيها مجال للأعمال المكتبية . حتى وزراء التعليم أنفسهم أصبحوا يقرون الآن بأن هذه الأسماء والتراكيب والسنن والمحفوظات لن تأخذ مكاناً من عمر مستقبل التلاميذ المليء بالبطالة ، لذلك يجب حتماً على كل طفل أن يتعلم حرفة في المدرسة لكى لا يموت أحد من الجوع إذا لم يجد له مكتباً خالياً أو عملاً في وظيفة حكومية . إذن ليس هناك ما هو أفضل من الأعمال اليدوية والمهارات ، إذن لتحيّا كارتونات الأحذية والحلويات ! وبأيت كل طفل لديه أب يعود كل ليلة إلى المنزل ومعه لفّة، وليحيا ورق الكلك ، وورق السوليفان الملون ! ولن يزيد الأمر على ذلك . أو يكون في نفس الحدود ، ليقوموا بإدخال منشار الأركيت سنّة سنة مثل الدبوس

ليصنعوا منها تواليت أفرنجي أو مواسير مياه ، ومنتزل أوربي بجمالون
وآلاف القطع الأخرى واحد فقط من كل ألف منهم هو الذي
يستطيع أن يفتح محلاً لصناعة البراويرز وتطعيم الأخشاب ، أو يستطيع
أن يحول منشاره الأركيت إلى منشار حدادي ومسامير بريمة وخرز
ونجف فرنسي ، إذن ليرحم الله أبا هذه المدرسة ، على ترويجها بهذه
الأعمال اليدوية لبضاعة أصحاب الأجزاءات في الحى ، وعلى
درجات السلوك والمواظبة فيها ، وعلى الاتجاهات الأصلية والحدود
والبحيرات ، وصادرات الحبشة ! وعلى التربية البدنية وواجبات تحسين
الخطوط ! فقديمًا عندما كنا لانزال فى مرحلة الدراسة كنا نعتبر التربية
الرياضية والتدريب على تحسين الخطوط بمثابة ملاط وزخرفة لدرجات
المواد الأخرى . وبالحسن حظ التلاميذ هذه الأيام فبالإضافة إلى كل
ذلك لديهم أعمال يدوية أيضاً ، ولديهم أيضاً معلومات بيئية ومدنية ،
وأفضل من هذا كله لديهم درجات على السلوك والانضباط ، يضعها
لهم مديرو المدارس ، ولا تحتاج إلى درس خصوصى ولا إلى سهر
الليالى . فقط يجب أن تتعلم كيف تمشى ورأسك إلى الأرض و « صم
بكم » و « مالك مربى ؟ من عند ربى » و « القناعة كثر الرجال » .
أليس هذا كله تقدم فى حد ذاته ؟ تقدم للتلاميذ ، وللمدرسة أيضاً ،
وأيضاً بشكلٍ خاص لمديري المدارس ، خطوة أخرى فى سبيل تحقيق
استقلالية المديرين ! فرغم هذه الأشياء التى كنت أواجهها كنت على
يقين من أننى أقوم بعملٍ مهم للغاية ، بالضبط مثل أى وزير ، بل

حتى أفضل من أى وزير ! فلم أكن أتخيل أصلاً أن أجلس هكذا لأعطى أبناء الناس درجات بمثل هذه السهولة ، درجات السلوك والانضباط ، وهى درجة مثل باقى الدرجات الأخرى . مثل درجات المواد المهمة كالتاريخ وعلوم الشريعة والحساب ! وتتوقف فقط على ملاحظة الأطفال خلال الأشهر الثلاثة الماضية ، فالطفل الفلانى كان يسبب ضجة خارج باب مكتبك ، أو كان يمشى فى هدوء ، أو هل وضع وجهه إلى الأرض أم لا ، عندما كان يحدثه السكرتير بالأمس ، إنك تترك الأمور على أعنتها للمدرسين ، يدخلون إلى الفصول ويستخدمون قوتهم وقهرهم ليجعلوا عقول أولاد الناس تمتص معلوماتهم ، وعندما يأتى الامتحان يكون معهم رأس حمار مثلك ، فأنت المدير ، وتفعل تماماً مثلما يفعل أى وزير ، تغلق على نفسك باب مكتبك ، وتصبغ شخصية كل تلميذ بكل ما فيها من ذوق وفهم وشقاوة وغباء فى شكل درجة باسم درجة السلوك تضعها طليقة فوق ورقة ، ثم ترسل الشهادة إلى والديه ليقرأها بكل شغف ولهفة ، ويفتخرا بها أمام الآخرين لأن لديهم طفل مؤدب ، يمشى ووجهه إلى الأرض ، ويحصل دائماً على الدرجة النهائية فى السلوك !
يا للعجب . . . لديك عمل مهم ، أليس الأمر كذلك ؟

قبل كل امتحان كنا نعقده فى قاعة التربية البدنية ، كنت أقوم بنفسى بإلقاء خطبة أمام الأطفال أقول فيها : - إن الخوف من المدرس أو الامتحان لا أساس له ، ويجب أن تتحلوا بالثقة بالنفس ، وأن

المدرس لا يحمل لكم إلا كل الحب والحنان ، وما إلى ذلك من زخرف القول ولكن هل كلمة واحدة من كل هذا كانت تدخل آذان التلاميذ ؟ بمجرد أن يدخلوا من الباب ، كانوا يقومون بهجوم على أركان القاعة لا يمكن وصفه ! يبحثون عن أماكن بعيدة عن المراقبة . وكأنهم يبحثون عن ملجأ أو مخبأ أو ملاذ ، خائفين مرتعشين ، هكذا فجأة حتى أحسست كأنهم يتلذذون بهذا الخوف ، يشجعون أنفسهم بالخوف ، أما أولئك الذين كانوا يجلسون على أول كرسى يقابلهم وبأيديهم يضعون كتبهم جانباً فقد كانوا نادرين للغاية . وحتى إن لم تكن مدرساً أو مديراً كان يمكنك بسهولة أن تخمن من منهم قد اتفق مع زميله ، ومن منهم سوف يجلس إلى جانب زميله الذي اتفق معه . كانوا يستمدون من بعضهم العون ، يحتمون ببعضهم بعضاً ؛ يختفون في ظلال بعضهم البعض ، بعدها بدقة يعدون دفاترهم وكتبهم ، وينحونها جانباً فربما أمكنهم أن يواجهوا الامتحان هكذا بمفردهم - كل واحد بمفرده - ؟ حاولت مرة أو مرتين أن أقف على يد أحدهم وهو يكتب ؛ لأرى مايكتبه . لكن كان كل منهم إذا فعلت هذا معه يصيبه الاضطراب ، وترتعش يده للدرجة يعجز معها عن الكتابة ، لكن أى خط هذا ؟ ما هذه الخطوط : - صحيح أن جميع الإدارات تحتاج إلى آلات كتابة - لا أعلم ، ولكن ماذا كان يفعل معهم مدرس الخط ؟ وإذا لم يكن الخطأ عليه في ذلك فمن الممكن أن نلقى باللائمة في ذلك على تلك الأقلام الرخيصة التي لا يزيد ثمنها عن تومان واحد

..... يتناولون بأعناقهم حتى يكشف كل منهم ما تحت يد من
يجلس أمامه ، نسوا أنفسهم بالفعل ، فما بالك بما حفظوه من شعر
ومحفوظات ! يصيهم العجز حتى ولو كانوا يعرفون الإجابة . إما
أنهم نسوها بالفعل أو أنهم يتشككون فيها ، وعلى ما كانت تدور
أسئلة الامتحان ؟ ثلاث بقرات تعطى يومياً لبناً بكمية « كذا » :
الأولى ضعف الثانية والثانية تزيد عن الثالثة بمقدار النصف ، احسب
كمية اللبن التي تعطيها كل بقرة يومياً أو واجب الأطفال تجاه الأب
والأم ، أو - ما أنهار الصين ؟ وما إلى ذلك من أباطيل ... ياله من
رعب ! كنت أرى أن رجال المستقبل هؤلاء سوف يملكهم الخوف
والرعب فى هذه الفصول والامتحانات وسوف يملأون أذهانهم
وروعاتهم بالرعب والخوف إلى درجة أنهم سيصبحون رجالاً من نوع
آخر عندما يحصلون على الدبلوم أو الليسانس ؛ رجالاً ملأهم الرعب
والخوف ، مخازن من الرعب المتحرك ، فالإنسان عندما يكون مدرساً
لا يتبته لمثل هذه الأشياء ، فهو الطرف الخصم فى هذه القضية ،
فالإنسان يجب أن يكون مديراً يقف على حافة الساحة ، يشاهد
ويراقب ويرصد هذه الصفوف من التلاميذ والمدرسين كل يوم وكل
شهر ، حتى يدرك ماذا تعنى ورقة الدبلوم أو الليسانس ! إنها تعنى
تصديق على أن صاحب هذه الورقة ظل لمدة ١٢ أو ١٥ سنة كاملة
يخضع خلالها لضغوط الخوف والإرهاب أربع أو عشر مرات كل
عام ، ولم تكن تحركه أى قوى خلال كل هذه السنوات سوى الخوف
ثم الخوف ثم الخوف !

ولم أستطع أن أستمع على هذا المنوال أكثر من يوم واحد . لأتني رأيت أنه لا قبل لى أن أملك قلب طفل حتى أدرك به ذلك الرعب والخوف الذى يتتاب التلاميذ وأتعاطف معهم . فعشر سنوات من العمل فى مهنة التدريس ، وإعطاء درجات ٧ ، وعشرة ، و ١١ قد أصاب قلبى بالقسوة وجعله كالحجر الصلد . كان هذا حيث قررت رغم كل المقدمات التى ذكرتها أن أنتهى من مسألة مراقبة الامتحانات والإشراف عليها ، ولأعد إلى مكتبى وليكن ما يكون . فلا بد أن ينجح أحد ويرسب أحد فى النهاية . كما جال بخاطرى هذه المرة أيضا أن المدرسين معهم الحق فى ذلك ، لأنهم عندما كانوا تلاميذ فى المدرسة من المؤكد أنهم تعرضوا للعقاب والضرب والآن جاء دورهم ليعاقبوا ويضربوا . وإذا كنت قد كسرت كل العصي وأدوات العقاب فلا مفر من أن يعاقبوا هم ويضربوا بالدرجات ، فهذه السلسلة المستمرة ليست صغيرة - وليست فى متناول يدك - بالقدر الذى تستطيع أنت أن تقطعها فى مكانٍ ما . فى مدرسةٍ أو فصلٍ أو امتحان .

هكذا صارت الأمور ، حيث بدأت أرى شيئًا فشيئًا أننى لا أستطيع حتى أن أكون مديراً لمدرسة .

قبل العيد بيومين كانت الشهادات مُعدة وتنتظر توقيع المدير ،
٢٣٦ توقيعاً ، تستغرق على الأقل إلى ما بعد الظهر لتوقيعها ، خاصة
أن توقيعى ليس من ذلك النوع الإدارى السهل ذى الخطوط البسيطة
المبسوطة ، كما أن يدي لم تعود بعد على هذا الأمر . فطوال المدة
التي قضيتها مديراً لهذه المدرسة لم أوقع حتى على دفتر واحد ، وقبل
هذا كنت أحاول قدر استطاعتي أن أتهرب من التوقيع فى دفتر الحضور
والانصراف فى المدارس التى عملت كمدرس بها ، لقد شاهدت
الكثيرين من موظفى الحكومة سواء فى الإدارات الأخرى أو فيما بين
زملائى المدرسين وهم يتدربون على التوقيع فى أوقات الفراغ ، يميناً
ويساراً ، فوق أى شىء يأتى تحت أيديهم ، ولو تسر لك أن تقلب
نشافة فوق مكتب أى كاتب إدارى فسوف تجد معرضاً لتوقيعاته ،
فحتى هو نفسه يعرف أن توقيع الإنسان دليل على شخصيته ، ستان
أو ثلاث سنوات صغيرة وسريعة ، ثم خط عريض من اليمين إلى
اليسار تحتها ، وتاريخ أصغر من الأسنان ، وتحت خط عريض دون أى
تعرج من القلم ، مع دائرة كبيرة يمر من وسطها خط خفيف بكل أبهة
وعظمة ، قطعاً كان كل هذا أيضاً فى حد ذاته نوعاً من التمرين على
الوزارة ، أما الآن وقد أصبحت مديراً فقد أدركت بساطة الموضوع ،
قبل هذا لم يكن فى مقدرتى أن أفهم كيف يستطيع مدير مدرسة ، أو

موظف بسيط فى إدارة ما أن يصل إلى الوزارة ، أو أن يراوده الأمل فى ذلك أصلاً ؛ نصف قنطار من التوقيعات الجاهزة وكل توقيع منها دليل على شخصية مغايرة ، ثم لسان ناعم لين بطول نصف ذراع تخرج به الثعابين من جحورها ، أو تعلق به أى مكان ، ويد ممدودة دائماً ، لا بطريقة واحدة ولكن باثنتى عشرة طريقة . بالضبط مثل دسته من الشوك وكل واحدة منها لعمل ما . بإحداها تلتقط السمكة من داخل سفرة الماء وتأخذ فى تقطيعها بأخرى كنت غارقاً فى هذا التفكير وأنا أوقع الشهادات . . . واحدة تلو الأخرى ، حتى وقعت عيناي فجأة على اسم معروف . كانت الشهادة باسم نجل سيادة هذا العقيد الذى كنا قد اخترناه كرئيس لمجلس الآباء ، كان فى الصف السادس ، يأتى إلى المدرسة على هيئة أكثر هنداماً ووسامة من المدرسين ، ملابسه مكوية بشكل أفضل من ملابسهم ، يتغيب كل أسبوع يوماً أو يومين معتمداً فى ذلك فقط على ما فوق كتف أبيه من رتب ، أو أن يأتى كل يوم متأخراً عن زملائه ، ولأن أباه كان كل شىء فى مجلس الآباء يبدو أن السكرتير لم يكن ليؤاخذه كثيراً على أفعاله ، أخذت أتفحص درجاته ، كانت جميعها متوسطة ، لأمجال فيها للتفوق . ودرجة السلوك التى يجب أن تعطىها مرة واحدة ومع آخر السنة الدراسية ، . . . لم يكن هناك مفر . . . فماذا أفعل حتى ياللعجب ! وفجأة تنبّهت إلى أننى منذ بداية العام الدراسى حتى الآن وأنا أحكم على تلاميذ المدرسة طبقاً لوضع ذويهم وحالتهم

المسادية . تماماً مثل هذا التلميذ نجل العقيد الذى لا يستذكر دروسه اعتماداً على ما لأبيه من سطوة أو جاه . أدركت أننى طوال هذه المدة وأنا أعتبر التلاميذ أكثر ذكاء إذا كان ذويهم يعانون من فقر أكثر ، ويقدر ما لذويهم من فقر يكونون أكثر تقبلاً للتربية والتهذيب والتعليم ، ويحضرون إلى المدرسة بعيون متفتحة وأذهان أكثر انتقاداً ، أما أولئك الذين يعتبرون ذويهم من الأغنياء فهم أكثر من الآخرين كسلاً وتخريفاً وبلاهة وتوتراً ، تبحث حالتهم على الأسى واليأس . لم يكن للسكرتير بالقطع أى علاقة بهذا الموضوع . كان ينفذ حرفة تقليد وقانون كان قد وضعه لنفسه فى العمل ، تماماً مثلما كان يتصرف مع نجل هذا العقيد ، يغمض عينيه عن تلميذ ، ويتشدد مع آخر ، وبعد يومين يفعل العكس . كان خلاصة للخوف والرجاء ، هكذا كانت تسير أمور المدرسة . أما أنا . فقد كان الوضع بالنسبة لى كائى قد حكمت حكماً مسبقاً على التلاميذ . وكم كان حسناً أن جميع الدرجات لم تكن فى يدى حتى تلك الدرجة التى كانت فى يدى ، وهى درجة السلوك ، لم تكن تمنح إلا فى نهاية السنة الدراسية . كنت قد سمعت أن المدارس العسكرية تمنح فيها درجات للطلاب على انضباطه فى ملبسه العسكرى ومظهره العام . ورأيت عندها أن الأمر لو كان يبدى فى ذلك لكنت قد منحت الدرجات بناءً على وضع الآباء المالى وثرواتهم . والمضحك فى ذلك أيضاً أننى كنت أريد أن أقهر الفقر وأقتله بتصرفى هذا ، وتنبهت أخيراً إلى أن هذا كان يعد نوعاً

من توجيه الفقر وليس إدانة له . كنت أكره الغنى فى الآخرين ، لأنه يعتبر السبب فى فقر هؤلاء الفلاحين والخدم ، لهذا السبب كنت أحاول أن أسحقه وأقتله .

لكن هل كنت أقوم بعملٍ صحيح بين حوائط هذه المدرسة الأربعة ؟ .. أكثر ما يشير السخرية أن يحاول الإنسان أن يعدّل الأوضاع ويصلح الأمور ، لكن فقط فى تلك الحدود التى لاتخرج عن حيز رأسه وتفكيره . وحتى مدرستى - حدود عملى هذا وحدود مسئوليتى - لم تكن هى الأخرى تخرج عن حيز تفكيرى ، وينتهى بها الأمر داخل ذهنى وتفكيرى ! والوضع الذى نظمته الآخرون لهذه المدرسة كان قد أخرجها من مجرد كونها حيزاً جغرافياً . بهذه الطريقة أصبحت أدرك بعد خمسة أشهر أو ستة أن حساباتى لم تكن تتسم بالمنطقية ، كانت عاطفية ووجدانية . كنت قد سمعت من أكثر من مصدر أن السكرتير كان قد تحصّل على أموال عديدة وعندها توصلت إلى نتيجة مع نفسى وهى « أن هذا يعد تكفيراً عن الذنب الذى فعلته أنت » ! من الأساس والمدرسة تسير على نفس هذا المنوال ، فضعفى الإنسانى وعواطفى الطيبة كانت تعوضها قسوته العملية وشدّته وتشدّده ، وهذا ما جعلنى لا أستطيع أن أتغاضى عنه بشكل كامل . كان رجلاً عملياً يتحمل المسئولية ويمضى قدماً . فكل خطوة كان يخطوها فى الحياة أو فى أى عمل كانت ذات هدف بالنسبة له ، يضعه نصب عينيه ويغمضهما عن باقى جوانب القضية ، وهذا ما جعله فى

تقدّم مستمرّ أما أنا فلم أكن أستطيع ذلك . لماذا لم أكن أصلاً مديراً للمدرسة ؟ لم أكن أستطيع أن أكون كذلك . انتهى كانت شهادة نجل العقيد قد بللها العرق تحت يدي ، فأخذت أجففها بكل حيلة ودقة وكان التوقيع الذي وقعته أسفلها سيء الخط ، ومثيراً للسخرية إلى حد ما - ذكرّني بتوقيع فرأشنا الجديد - من المؤكد أن سيادة العقيد سوف يقول لنفسه « لماذا جعلوا مثل هذا الإنسان الجاهل وبهذا الخط والتوقيع مديراً لمدرسة » ، فأى جناب عقيد يعرف حتماً أن توقيع الإنسان دليل على شخصيته .

مع نهاية عطلة أعياد النيروز ذهبت لزيارة المدرّس النحيل ،
مدرس الصف الثالث ، ولما كان السكرتير على علاقة غير طيبة
معه اضطررت لأن أتفق مع مدرس الحساب فى الصفين الخامس
والسادس لأنه كان على علم ببعض تفاصيل هذه الحكايات ، وعن
طريقه أيضاً عرفت عنواته ، وفى أى سجن هو وإلى أى معتقل
ذهب .

فى طريقنا وقبل أى شىء أبلغنى أن مدير المنطقة التعليمية قد تم
تغييره ، وكما هو شائع فإن الذى حل محله هو أحد زملاء
دفعتى . قلت : -

- « عجيبة ! ليه ؟ هو المدير السابق ما كانش مالى مركزه ؟ » .
- « أقوله إيه ... يقولوا عمل رأسه برأس أحد النواب . هو
سيادتك ما تعرفش ؟ » .
- « إزاي ؟ أعرف مين ؟ » .

- « مفيش ... بس يقولوا إن اتنين من اللى ساعدوا أخينا فى
حملته الانتخابية كانوا يياخدوا راتب من خزانة الإدارة التعليمية ؛ وفى
ليلة العيد منع مدير المنطقة صرف مرتبهم » .

- « عجيبة ! هو كمان كان عايز يصلح الأمور ويعد لها !
مسكين . . » .

بعدها ، أخذنا نقول : الحمد لله أن المدرسة تعمل فى هدوء
وانتظام وأن المدرسين متعاونون . وأخذ يفهمنى تلميحا أن السكرتير قد
أصبح كل شىء فى المدرسة وبشكل أكثر من اللازم . وفهمت أنه
حتماً وجد له زبونا آخر جديد يعطيه درساً خصوصياً ، مما أثار حفيظة
الزملاء وعلا صوتهم ، بعدها حولت الحديث إلى حياة مدرس الصف
الثالث الذى تقرر أن يوقف راتبه بداية من الشهر القادم ، وكذلك
دراسته فى كليته التى كانت قد انقطعت منذ مدة . وعلمت أن لا أهله
يرسلون إليه شيئاً من بلدته لأنه لا يوجد وسيط بينهما ، ولا حتى أى
جمعية أو هيئة تقدم له مساعدة . ولم يكن له بالفعل سوى نفس
الطعام الذى يقدمه السجن ، ولحسن الحظ أنه لم يكن يدخن وما
إلى ذلك

وعلى باب السجن تراحم الزائرون . زائرون من جميع الأهالى
والطبقات ؛ أصحاب طواقى مخملية وبنات عم مختمرات وخالات
حيبات مع أطفالهن كان بينهم حتى اثنان من المشايخ الأشراف ذوى
العمائم السوداء . كتبنا الاسم واسم الأب واسم الأم ورقم البطاقة
الشخصية ومكان صدورها ، وأخذنا دورنا حتى كلت أيدينا ، وكلت
أرجلنا تحت وطأة ثقل الحمل الخفيف الذى كنا نحمله معنا ، وداعبنا
النعاس حتى وصل دورنا ، ومن حجرة إلى أخرى ، ومن هذا الممر

إلى ذاك ، وعند كل منها تفتيش عن شيء فينا ، أو تفحص . وأخيراً
درج احديدي وفوقه مدرس الصف الثالث و . . . ياللعجب لقد سمن
وتضخم ! أصبحت له هيئة رجل يملأ ملابسه تماماً . ورغماً عني قفز
إلى ذاكرتي مدرس الصف الرابع الذي مازال حتى الآن في الجبس .
وغمرتنا البهجة ، وأخذنا نسأله عن أحواله ، وجاء السجنان وأخذ منا
اللفافات ، ماذا أقول بعد . . . ؟ هل أقول له : لماذا ألقيت بنفسك
في هذه المشكلة ؟ واضح أن وضعه هذا كان أحسن بالنسبة من المدرسة
والفصل . تغير لون إحدى يديه ، واضح أن الجروح قد ملأت ذراعه
تحت كم سترته من معصمه إلى ما فوق . لكنه امتلاً جسماً ولم يعد
يهتم بمثل هذه الأمور . متذرع بالإيمان وهذا كل ما كان لديه ، وقد
جعله هذا يتحمل في صبر . سعيد الحظ فلم يكن الجزع يصيبه ،
وأصبح السجن على الأقل بالنسبة له مجرد فصل دراسي . سألته
في النهاية : -

- « همه وضبوا لك القضية ولا أنت لسه لغاية دلوقتي رهن
الاعتقال ؟ » .

- « حققوا معايا حضرتك وكان أسهل من الميه » .

- « يعني أيه » .

- « يعني إني مش رهن الاعتقال دلوقتي . لأن اسمي خطوه في
قائمة المسجونين . وارتحت كده ، لأن المتاعب خلصت خلاص . »

ماذا أقول بعد ذلك ؟ رأيت أنه لاشيء لدى أقوله ، فاستأذنت وودعته ، وتركته مع مدرس الحساب وحدهما وخرجت ، أخذت أتمشى عند باب السجن حتى تنتهى مدة الزيارة ، وأخذت أفكر فى السجن الذى صنعته حول نفسى ، أقصد هذا المبنى الذى أنشأه ذلك الرجل محب العلم والتعليم . وسجنت نفسى فيه بكل إرادتى وصميم رغبتى . فأخينا هذا المسجون قد جاؤا به إلى هذا السجن بضرب الهراوات ، إذن فهو مضطر لأن يعيش وهو مرتاح البال والخطاير . أما أنا فقد ذهبت إلى سجنى بإرادتى ورغبتى ، وماذا أفعل الآن ؟ وكيف سيكون السكرتير بعدى ؟ وإذا كان أحد زملاء دفعتى قد أصبح بالفعل مديراً للمنطقة التعليمية ، فكيف أذهب إليه وأطلب منه أن يضع السكرتير فى مكانى ، أو مدرس الحساب هذا ؟ هكذا أخذنى التفكير حتى جاء مدرس الحساب وغادرنا المكان . لم أنطق معه بكلمة أخرى ، ومع أول تقاطع ودعته ، وأخذت تاكسى وتوجهت مباشرة إلى المنطقة التعليمية .

رغم أنه كان اليوم العاشر من أيام العيد ، إلا أن زحام العام الجديد لم يكن قد انقطع بعد ، حركة وذهاب ومجىء وتبادل الشاى والحلوى . عام جديد ، ومدير منطقة جديد ، قران السعدين ! دخلت وسلمت عليه وهنأته وقدمت له كل المجاملات ، نعم كان هو نفسه أحد رفاق الفصل . عندما كنا معاً فى نهاية الصف الثالث تحديته أن يحفظ ييتين من لامية العرب ، لكنه لم يستطع ، نعم لم يستطع .

واضح أنه لم يفهم حتى عبارة « قران السعدين » التى قلتها له فى تهنتى ، والتى يفهمها أى متسول يقرأ « يس » فى الشارع . أما الآن فقد أصبح هو مديراً للمنطقة التعليمية وأنا مازالت مديراً لمدرسة . حقيقى - يا للأسف وياحسرتى ! فحتمًا كان لابد أن أكون أنا وزيراً لمثل مدير المنطقة هذا !

كان المكتب مثلما كان من قبل نظيفاً مرتباً ، مثل حجرة استقبال فى منزل عروس تزوجت حديثاً ، أما متفضة السجائر فقد امتلأت بالرماد وأعقاب السجائر . لأن السجارة لم تكن تفارق يده . قام من مكانه ، وتبادلنا الأحضان والقبلات ، وأفسح لى مكاناً إلى جانبه وتبادلنا الحديث عن موظفى التربية والتعليم و « التهئة الحارة » و « بتوفيق الله » و « فيض الكريم » وحكايات قديمة كانت بيتنا ! وتذكرنا اثنين من زملائنا كان جسماهما يليق بحلبة مصارعة ، أو يمكن أن يكونا من هؤلاء الذين يقفون إلى جانب صناديق الانتخابات لتوزيع الحلوى على الناخبين . « يمكن يكونوا هم أنفسهم الشخصين اللذين تسببوا فى تغيير مدير المنطقة السابق » . كدت أن ألقى بالحلوى التى كانت فى يدي فى طبقه ، لكن رأيت هذا حمقاً شديداً . ولما انتهيت من سيجارتى سألته هامساً عن حكاية مدير المنطقة السابق وهذين الشخصين ، فلم ينطق بكلمة . فقط نظر إلى نظرة شبيهة بالتماس واستعطاف . وانهزت الفرصة لكى أوضح له وضع مدرس الصف الثالث ، وأطلب منه أن يعمل ما فى وسعه لكى لا يتوقف راتب هذا المدرس . وبمجرد خروجى تذكرت من جديد أننى كنت قد ذهبت لمدير المنطقة التعليمية لسبب آخر .

فضيحة أخرى ظهرت بالأمس . فليس من المعقول أن نظل طوال شهر أبريل فى هدوء وسكينة . وجاءت بداية شهر مايو لتعلق معها نواقيس وأجراس الفضايح على سور المدرسة ؛ فمع قرب انتهاء يوم دراسى ، دخل إلى مكتبى زوجان أب وأم يتوسطهما طفلهما ، الأب يشتعل من الغيظ ، والأم ذهب لون وجهها من الدهول ، وطفلها يشبه تماماً تلك الدمى التى تتكلم ، ألقيا بالتحية وجلسا ، يا إلهى ماذا حدث ثانية ؟ لقد ضقت ذرعاً بهذا الوضع وكدت أنفجر ! فبمجرد أن أخذ قرارى بأن أترك الأمور على حالها ، لاتركنى الأمور والمشاكل فى حالى .

- « شرفتنا حضرتك والهاتم . لعل السبب خير ! » .

أشار الرجل إلى زوجته ، فنهضت وأخذت ابنها فى يدها وخرجت ، وبقيت أنا وأبوه ، كان الغيظ والنفور يملأه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، وأنا كلى تساؤل . لكنه لم ينطق ببنت شفة ، كأنه يعطى لنفسه الفرصة حتى يتخلص من عصيته ، تعجبت لذلك ! . أخرجت عليه سجائرى وقدمت له واحدة ، فردّها بحركة وكأنه يهش ذبابة سمجة من فوق أنفه ، فكرت وأنا أشعل سيجارتى أنه حتماً لديه ما يؤلمه حتى يجلس بهذه الطريقة ، ويحضر إلى المدرسة معتمداً على

أسرته بأكملها ، حتماً هناك أمر خطير عباً له كل القوى . سألته مرة أخرى :

- « طيب ! حضرتك تأمر بآيه دلوقتي ؟ .

وانفجر فجأة ليقول - « أنا لو كنت مدير مدرسة ويحصل كده فى مدرستى ، كنت انتحرت ، لازم تتكسف على دمك ياراجل ! روح قدم استقالتك عشان الناس ما يجوش يقطعوك حتت . فتح ودانك كويس . علشان ولاد الناس بيعجوا هنا عشان يتعلموا ويتأدبوا مش عشان... »

- « إيه الكلام ده ياراجل إنت ! لازم تحاسب على كلامك ! »

وتحركت لكى ألقى به خارج الغرفة . لكن فى النهاية يجب أن أعرف ما الذى جعله فى هذه الحالة . عليه اللعنة ! فى مكتبى وأثناء أدائى لوظيفتى يسبنى بمثل هذه الألفاظ ، وبهذه الطريقة يخاطب مدير مدرسة . لعله نسى أن مصير عام كامل على الأقل من عمر ابنه معلق بإشارة منى ، رجل مثلى له هذا الجسم يمزقونه تحت سيارة ولا يوجد من يقول لهم ماذا تفعلون ؟ وهذا الشاب مؤكد أنه لم يربط كلباً فى فمه هكذا بدون سبب . ولكن ماذا يريد منى فى النهاية ؟

- « ضاعت كرامتى وضاع شرفى ، ضاع شرف عائلتى لمائة سنة قدام ، ماكنش ابن ابويا لو ما قفلتش مدرستك دى من بابها ، طب أعمل إيه أنا مع العيل ده ؟ دا شرف الناس فى المدرسة دى

مالوش أى قيمة . الشرطة فى المخفر فهمت . والطبيب الشرعى فهم ،
واتعمل محضر وقضية من خمسين ورقة . وأنت جاي دلوقتى تقول
لى لازم تحاسب على كلامك ؟ كلامى اللى بحساب دلوقتى هو إن
الكرسى ده والمنصب ده كبير عليك قوى . كلامى اللى بحساب إنى
أسلمك عشان يحاكموك ويقطعوا عيشك ... »

كان يتحدث هكذا وأنا أرد عليه ، ووقعنا فى بعضينا مثل كلبين
أخذهما السُعار ، حتى انفتح الباب ودخل السكرتير . لقد أنقذنى
بالفعل . فلو كان قد تأخر دقيقة واحدة ، يعلم الله ماذا كان سيحدث .
فبينما كنت أنا وهو نتبادل السباب كانت الأم قد ذهبت بطفلها إلى
السكرتير وحكوا له الحكاية بشكل أكثر صراحة ووضوحاً . وأرسل هو
ليسحبوا الفاعل ويجرجروه خارج الفصل ... وشرح لى كيف
نضرب الجرس ونأدبه أمام التلاميذ ، وفعلنا هذا بالطبع . بمعنى أتنى
دخلت إلى الساحة بالفعل هذه المرة . كان الفاعل ولدأ فحلاً ، من
تلاميذ الصف الخامس بملابس مهتمة ، ووجه أبيض مشوب بحمرة ،
يافع القد . كان من الممكن أن يكون مفعولاً به أفضل بكثير من تلك
الدمية الناطقة . لم يكن ينتظر حتى أن يقال له أنت ، سحبتَه أمام
التلاميذ وأنا أكيل له الضربات لكماً وركلاً ، ثم هُشمت فوق رأسه
وجسمه ثلاثة عصي أسرع الفرّاش الجديد بإحضارها من الحديقة
المجاورة . هكذا تملكتنى الوحشية إلى درجة أن هذه العصي لو لم
تكن قد أحضرت لكنت قتلته حتى تدخل السكرتير وأنقذه من بين

يدى ، وحملوه جثة هامة إلى داخل مكتبى ، وصرفوا التلاميذ ،
ولما عدت إلى مكتبى ، وارتعيت فوق مقعدى فى حالة مزرية ، لم
يعد هناك أثر لا للأب ولا للأم ولا حتى لدميتهما الناطقة التى ضاع
شرفها ، أحسست عندها أن كل هذا الضرب كان لابد أن أوجهه له .
كنت أتصيب عرقاً ، والمرارة تملأ حلقى . فكل السباب الذى كان
يجب أن أوجهه لذلك الرجل العنّين كان قد ترسب فى حلقى ليصبح
مراً مثل ذيل ثعبان « لماذا وصل بى الأمر فى النهاية لمثل هذا
اليوم ؟ كلب مسعور تنهش فى جسد ابن الناس ! » لماذا ضربته أنا
أصلاً ؟ لماذا لم أترك الأمور - مثلما يفعل السكرتير دائماً - تجرى
على أعتتها ، حتى تنتهى إلى الصلاحية وتبرد حميتها . مالى أنا
والحفاظ على شرف أطفال الناس ؟ هل نصّبونى مديراً للمدرسة
لحراسة ملابس التلاميذ الداخلية ؟ فمدرسة مثل هذه وسط الصحراء أو
فى أى مكان آخر ، وفصل الربيع وأطفال فى مرحلة البلوغ ، أى
مدير أنت ، وماذا تدير ، وما الذى يفرقك عن أى حمار آخر ؟ من
المؤكد أن هذا الولد لا يستطيع حتى أن يلعب مع ابنة عمه ، ويوجد فى
عائلتهم حتماً بنات عشرة ، ١٢ سنة يجب أن تحتجن عن الصبيان فى
مثل سنهن .

« أتظن أنك بهذه العلة تداوى وتعالج أمراضاً كثيرة .. يالك
من أحمق ! إذن لماذا ضربته ؟ مالك أنت وهذا ؟ ويا له من ضرب
عجيب كان ! كأنه القتل ! ... ألم يفعل فعلة مشينة ؟ ... »

وتنبّهت فجأة إلى أنني يجب أن أذهب لأرى أي بلاء أوقعته عليه نهضت وناديت أحد الفراشين . واتضح أنهم قد صرفوه . أحضر الماء وصبه على يدي وغسلت وجهي ، وحاولت ألا يرى ارتعاشة يدي . وأخذ هو يسر لي في أذني بكل هدوء أن الولد نجّل مدير في شركة النقل العام ، وأنه عوقب وضرب بشكل صعب ، ولا يعلم من أي مكان كانوا يغسلون دمه الذي سأل ، وأوصلوه منزله ، وما إلى ذلك من حسن الخدمة يالك من أحق ! . . . وكأنه أخذ يفرغ ما في قلبي . لم يكن يعلم أنني أخذت قرارى منذ البداية ، ثم أصبحت مثل كلب مسعور . وأدركت بعدها أنني ضربت شخصاً كان أهلاً لهذا الضرب . لقد اقتلعت من جميع أعضاء بدنه نهمه وشرهه للطعام ليل نهار ، وتربيته المدللة ، باللكمات والركلات وألقيت بها بعيداً . من المؤكد أن هذه المرة الأولى التي يرى فيها مثل هذه اللكمات والركلات . «يا لك من جحشٍ أحق ! بلغت مرحلة البلوغ ، فلماذا لاتذهب وتستمنى مثلما يفعل الجميع ، حتى لاتوصل أمر ابن الناس إلى الشرطة والطبيب الشرعى بهذه الطريقة ؟ وفى مدرسة أكون أنا مديراً » . من المؤكد أن مثل هذه الأمور تحدث فى أماكن أخرى ، لكن من المحتم أن الآخرين يتسترون عليها . فهم ليسوا مثل هذا الأب وهذه الأم الحمقى اللذين قاما بقرع ناقوس فضيحتهم ، يالها من فضيحة جُرّسا بها ! أيخلع إنسان ملابس ابنه الداخلية ، أو على حد قوله شرف أسرته ، ويلقى به هكذا على قارعة الطريق لتفحصه الشرطة المحلية والطبيب الشرعى ! حتى يجرى التحقيق ويتم إثبات

ماذا ؟ هل لكى تكتمل جوانب القضية ؟ لماذا وضد من ؟ ألكى
يقطعوا عيش مدير المدرسة ؟ لتحقيق هذا الأمر ليست هناك حاجة
لقضية آداب . فشعار واحد للمطرقة والمنجل تحت صورة من هذه
الصور لمقابر الهخامنشيين يكفى لتحقيق هذا الأمر . لعنة الله على
رؤوس الحمقى ! من مثل هؤلاء الآباء والأمهات حقيق بالأطفال أن
يولدوا شواذاً ونشالين ولصوصاً وكذابين . وهذه المدارس يجب أن
تفتح أبوابها أولاً للآباء والأمهات ، كم كان قلبى يود لو أننى طحنت
«أخيـنا» هذا بفمه المفترس تحت لكماتى وركلاتى . . . مع هذه الأفكار
وصلت إلى منزلى . بمجرد أن فتحت زوجتى الباب برقت عيناها ؛
هكذا كانت دائماً عندما يعترىها الخوف ، ولكى لاتظن أننى قتلت
أحداً ، أخذت أروى لها ما حدث ، ورأيت أن الواقعة قد أجمتها ،
بمعنى أنها ظلت ملتزمة للصمت . ماء بارد ، عرق يتصبب ، سيجارة
وراء أخرى ، ولافائدة ولم تكن اللقمة تنزل من حلقى ، ومازالت
يداي ترتعشان ، وكانت كل واحدة منهما وكأنها ظلت تعمل لشهر
متواصل . بدأت فى سيجارتى الرابعة :

- « تعرفى ياست ؟ أبو الولد غنى . مؤكد إنه هيوصل الموضوع
للنيابة والمحكمة والمواضيع الزفت دى . الفاتحة على منصب المدير ،
لكن قلبى عايز قوى إن القضية توصل للمحكمة . سنة بحالها وأنا
بحط فى قلبى واسكت ، تعبت بقى . قلبى عايز حد يسألنى ليه
ضربت ابن الناس بالشكل ده ، ليه أصلاً عاقبته عقاب بدنى ! لا دا أنا
بقى مدير مدرسة وعنده كلام لازم يقوله فى أى مكان . . . »

سمعت هذا وقامت فى اتجاه التليفون . واتصلت باثنين أو ثلاثة من أصدقائى الذين يعملون فى النيابة ، وقمت أنا برواية تفاصيل القضية على مسامعهم حتى يكون لديهم علمُ بها .

فى الغد التالى لم يحضر الولد الفاعل إلى المدرسة ، وأخبرنى السكرتير أن القضية تتلخص فى أن الولدين - الفاعل والمفعول - كانا يذهبان معاً إلى منزل الفاعل بحجة التفرج على مجموعة الطوابع التى يمتلكها وأن الأمور كانت تحدث هناك ، وفضيحة وتدخل من والد ووالدة الطرفين والتليفون والعنوان ومركز الشرطة ليلاً ، وعلم بالامر جميع أهالى الحى . وكان رأيه هو الآخر أن الامر سوف يصل للنيابة وظللت أنا لمدة أسبوع كامل أذهب إلى المدرسة صباحاً وعصراً فى انتظار إخطار النيابة واقفاً خلف الزجاج مثل تمثال نبوخذ نصر .

لكن طوال هذه المدة لم يصلنا أى خبر لا عن الفاعل ولا عن المفعول ، ولاحتى عن ذلك الأب والأم المؤتزرين بالشرف ، ولا عن مدير شركة النقل العام . وكان شيئاً لم يحدث . والتلاميذ يحضرون وينصرفون ؛ يتسارعون لشرب الماء ، يتساقطون على الأرض كل دقيقة ، وبدلاً من اللعب يضربون بعضهم بعضاً ، والمدرسون لازالوا فى تأخيرهم لدقيقتين أو ثلاث وسيرهم فى تباطؤ ، والسكرتير يتنقل مع طرقة كعب حذائه مثل بسمارك ليقوم برتق الأمور وفتقها . وبقيتُ أنا وحيداً مع عالم من الكلمات والانتظار . حتى وصل فى النهاية . . . أمر بالإحضار مع تحديد الوقت ، بعد يومين فى الشعبة الفلانية وأمام وكيل النيابة الفلانى . أخيراً ظهر من يُنصت لكلامى .

طوال اليومين التاليين وحتى موعد الإحضار . لم أخرج من المنزل أصلاً . جلست وكتبت كل ما لدى من أقوال فوق الورق ، أقوال وكلمات وحكايات بكل التفاصيل التي يستطيع معها وزير تعليم أن يضع خطة عمله لسبع سنوات مقبلة ، وفي الموعد المحدد ذهبت إلى النيابة ؛ المكان المحدد ، ووكيل النيابة المحدد . فتحت الباب وألقيت بالتحية ، وبمجرد أن أخذت أعرفه بنفسى وأخرج أمر الإحضار مد «أخي» يده إلى ليصافحني ، وأحضر كرسيًا ، وأوصى بالشاي ، و « لا داعى لكل هذا الكلام ، والقضية أصغر من هذا ، وقد تم حلها ونحن لم نرض أن نتعبكم » حيث استقر العرق البارد فوق بدنى كما هو . وبعد أن شربت شايي .. كتبت استقالتي على نفس ورق النيابة الذي يحمل شعارها ، وألقيتها في أول صندوق بريد باسم زميل فصلى الغبى الذى أصبح حديثاً للمنطقة التعليمية .

انتهى

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى: حسن كامل

مدير مدرسه

جلال آل احمد

إن أهم ما يميز جلال آل أحمد في كتاباته أنه يتمثل الإسلام في كل أعماله تقريباً ، كما أنه حجج إلى بيت الله الحرام . ووصف رحلة حجه في كتابه «خسى درميقات : قشة في الميقات» . وكان من أهم من وضعوا أساس الفكر الإسلامى الجديد في إيران . وقد أدى اهتمامه الخاص بالطبقات الشعبية وأهالى السوق والحارة إلى أن اعتبره النقاد كاتباً ومفكراً اجتماعياً . إلا أنه يجب الاعتراف بأن المشاعر والأحاسيس كانت هي المحرك الأول في أعماله الأدبية أكثر من المعلومة المعرفية . ويدل هروبه وجنوحه إلى السياسة والدين وتردده بينهما على أفكاره المتصارعة دوماً . إلا أنه يمكن القول - بحسم - إن الأخلاق بين مواطنيه كانت إلى إدانة هذا الفساد ومحاكمته بشكل جاد ومتعمد ويتميز أسلوب جلال آل أحمد - في كل أعماله القصص باستخدامه المفرط لصيغ الكلام ، ويمتد ذلك إلى الوصفية . كما أننا لا نستطيع أن نميز بين الحوار المباشر المباشر في قصصه . وفوق ذلك فهو سيد الاختصار والادخار في التعبير . وهو يصور شخصياته عند ظهورها باختصار ، وتأتي إلى الحياة من خلال حديثها .